عز الدين جعفري

أروقة الحريّة

أروقة الحرية

اسم الكاتب: عزالدين جعفري
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: 2018 / 23015
الترقيم الدولي: 978-977-6610-38-5

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

عز الدين جعفري

أَرْوِقَةُ الحُرِّيةِ

روايـة

إهداء

إِلَى شُهدَاء الحُرِّيةِ..

شُهَداءُ الوَطَنِ..

إِليكُم جَمِيعًا.

عزُّ الدِّين

رؤية

"الحُرُّ مَن استَشهدَ، وَالعَبدُ مَن خَبَّأَ رَأسَهُ"

توطئة

روايةٌ بقلمي ومن نفحاتِ إحساسِي؛وروح ثورتي الموسومة بـ- أروقةُ الحريةِ-رواية تصوّر لنا مواقفَ بطوليّةً لرجالٍ عاهدوا الله على المضيّ قدمًا تجاه تحرير أرض الجزائر من ربقة العدوّ الغَاشم الذي جثمَ بصدره على أرض ليست له -ولن تكون له وإلى الأبد-ممارسًا عنفه وجرائمه ضد شعب أعزل لا قوة له غير إيمانه بالله وبأرضه، فهبَّ عن بكرة أبيه مدافعًا عن أرضه وكرامته بوسائلَ بسيطة من خناجر، وبنادقَ صيد إلى أشياء أخرى ينتزعها من عدوّه أثناء تنفيذ عملياته الفدائيّة، إنّها غنيمة حرب يستولي عليها من حين لآخر ومتى سنحت الفرصة لذلك.. رواية بقلميّ ومن نفحات وروح ثورة نوفمبر المجيدة، أسطورة مسطرة في قالب فنيّ رائع، وبلغة شاعرية إيحائيّة لا تحتاج إلى تفسير قاموسي لشرح معجمها اللّغويّ؛صور بطوليةً لرجال خاضوا معاركَ مصيرية يدفعهم عزمٌ وإصرار نيلًا لأسمى معنيين، إما الحريّة، وإما الاستشهاد في سبيل أرض الجزائر، أرض الآباء والأجداد.. رواية بقلمي تقص ملحمة ثوريّة داميّة شاهدة على مجازرَ جماعية لا تُغتفر ارتكبت في حق شعب مسالم، وبطريقة همجيّة لا ذنب له عدا تشبثه بأرضه ووجوده منذ أمد بعيد.

إنّها رواية "أروقة الحرية".

١

حلـم

كنتُ ماء، ومن الماءِ أتيتُ، كنت طفلًا والطّفولة علّمتني حبّ أمّي والوطن، وتدرجت لم أكن أعرف شيئًا عن أبيّ، كان جدّي ينهض عند آذان الفجر يجرُّ محراثه قاصدًا الحقل.ذات مساء حدّثتني أمّي قائلة:أبوك ذهب بعيدًا صوب البحر، نحن لا نعرف عنه شيئًا، حلمنا الوحيد أن يعود حاملا غصن زيتون وقطعة خبز قبل أن يذهب إلى الأبد..لا لن يعود، وماتت دمعة في قاع بؤبئها الأسود البعيد، ثمّ مدّت يدها راسمةَ خطًّا طويلا قائلة:أنت لم تدخل المدرسة يومًا، لم تقرأ حرفًا، خُلقت عاريًّا كوجه الشّمس، صغيرًا كحبّة مطر، وكبرتُ رغم أنيّ طفلٌ غرير لا علم لي إلا أنّني رأيتُ فوق قمّة الجبل بندقيةً، وعلَمًا وأناسًا قرب النّبع لم يكونوا أغنياء، قيل إنّهم جاءوا قبل القصائد والمطر.وفي لحظة ما ربّت جدّي على كتفيّ وهو يرنو إلى اللاشيء:

يا بنيّ في ليلة ليلاء، في ساعة حمراء سمعنا طرقًا قويًّا على باب كوخنا الصغير، حينها تعالت أصوات أخواتك الصّغار، دخل الجنود الدّار بأحذيتهم الخشنة، شاهرين أسلحتهم في وجوهنا، ثمّ راحوا يفتّشون الكوخ لم يجدوا شيئًا، بعدها زمجر عسكري مربوع القامة، متين البنيّة، مكتنز الجسم سائلا إيّاي :

ابنك؟!

-بلعت ريقي مجيبًا:سافر monsieurصفعني صفعة جعلتني أدور دورة قصيرة ولم أفق إلا على أثر ركلة على المؤخرة، صدمت والله واسودّت الدنيا أمامي، ومنذ ذلك الوقت لم أعد أولي للموت أهميّة، لقد تكسرّ كلّ شيء والمكسور يحاولون كسرَه على أجزاء صغيرة مصغّرة. -أسمعت جدك يا بني؟أفهمت؟أم لديك اعتراض؟لمَ أنت ساكت والسُّكوت لم يعد علامة الرضا، أم لديك كلام آخر تريد قوله، تكلّم لنراك، لا تخف ما تخاف منه تصل إليه اليوم أو غدا ومالت برأسها ماسحة دمعتين حارتين ثمّ عضّت على شفتها السفلى بالبَرَد، عندئذ عرفت أنّ أمّي خبّأت عنّي حقيقة أبيّ، الحقيقة التي دفنتها بين تلا فيفذاكرتها وانزلقت من بين أصابعها كما ينزلق الماء بين مفاصل صخر، ولم تجد منفذًا عدا أنّها رمت في نصف قارب أسرار معانيها.ثمّ أخذت تدندن وفي حلقها بحة.

العصافير التي حاصروها
بالأمس غنت أغانيها
مدت يدها في الأفق راسمة
تهانيها.
العصافير التي بنت أعشاشها
من وحل الطين وريش الحمام
لن تنسى ماضيها.
العصافير الجميلة كانت منذ
الأزل ولم تزل صانعة وطنًا
من بؤبؤ عينيها.

٢

سحبتُ نفسي على عجلٍ ووليت وجهي قبالة فراشي، صُدمت والله، أصيبت بإحباط كبير، دفنت رأسي تحت وسادتي، وسادتي التي مازال لعابي عالقًا بها ؛ورحت أتساءل في صمتٍ دفين.. ترى أين اتجه أبي؟أبوي الذي لم أره إلا مرّة في طفولتي، إني رأيته يسحب جسده بقامته الطويلة وشعره الأشعث يستره ببيري أسود قاتم، ثمّ اختفى في لمح البصر، إلى أين هو الآن هذا الذي أقلقني كثيرًا ولم أجد له تبريرًا، فكرت فيه مليًّا، ولكني عبثًا أفتش عنه بين خبايا الدار وفي تقاسيم وجوه الرجال الذين عاشروه، رحال لم يكونوا كالآخرين، ثمّ غفوت فتراءى لي واقفًا قائلا:كرامة المرء فوق كلّ شيء بعدها توارى واحتجب، نهضت مذعورًا كالذي مسّه أذى وأخذت أصرخ:هنا كان أبي، إنّه هو، هو، بوجهه القمحي، إنّه هو مازال شابًّا يافعًا، بشعره الأشعث الفحمي وعينيه السّوداويين، انّه هو. هو....سمعتني أمّي، صاحت مردّدة:يا لطيف ربّ يستر، ثمّ أقبلت مسرعة وفي يدها موس، كانت تقشّر به حبات بطاطا وهي تقول:نعم يا ولدي هنا كان، وهذا فراشه، أشياؤه الصغيرة مازالت هنا، هنا الآن تنام ذكريات طفولته، إنّه يحيا في هذا الحيز المكاني الذي عرف مسقط رأسه، لم يكن محظوظًا وحتى أمه لم تكن فرحة بمجيئه في الظرف الزمني الصعب هكذا قال

لي، إنّه هو، هو، أنت صادق فيما تقول ولا أحد يكذّبك في هذا، طفولته يا ولدي لم تكن تشبه طفولة أترابه، كانت طفولة مملوءة بالقهر الاجتماعي بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من وجع، لم تهدَ له هديّة ولم يحتفل في مسار شبابه بعيد ميلاد، عيدُ وقد نسيّه وكيف لا ينساه مادام مجرد رقم أضيف إلى جملة أرقام، رقم أصمّ أخرس لذا ها هو يحاول استنطاقه ولكن لا شيء هناك، لقد تساوت الأشياء في بعدها وعمقها رغم أنّه من السّكان الأصليّن، وأحد المزارعين الذي كان يمدّنا بسنابل الحياة، فلاح ساذج قضى شبابه بين الكوخ والحقل، ينهض عند بزوغ الفجر يجر محراثه ويقصد الحقل ليعودَ مساء يجرُّ خطواته جرًّا، متعبًا كان، أتعبه شظف العيش، ومحن الحياة التي حرمته من جلسة أسريّة أو متعة أو شيء آخر، وأكثر من هذا أنّه لم يجلس لحظة على مقاعد الدراسة، لم يقرأ حرفًا واحدًا ورغم ذلك كان قانعًا مقتنعًا بما تقدمه يداه، لم يمد يده لأحد أو على أحد، ولم يدخلها في جيب أحد، هذا ما أعرفه منذ أن تزوجني، لقد تزوج زواج الغرباء الذين تقطعت بهم الحبال في ديار الآخرين، ورغم هذا كان يحبني، ولا يخبئ علي شيئًا، صحت وماذا يخبئ مادام لا يملك شيئًا؟.ولكن يده بيضاء يا عبود يا بني، رغم هذا سرق العدوّ يده مغتصبًا أرضه، الأرض مال كبير يا صغيري حركها تغنيك وأكثر من هذا أوليس من الأفضل ترك الحبل على الغارب ودع الأقدار تفعل فعلتها، خل البئر بغطاه.

هي هكذا حياة من عاش تحت سيطرة الآخرين، "إنها الأيّام تعطي حينما لا شيء يجدي ".لا تقلق يا ولدي ولا تخف من روحه الطّاهرة، لن يؤذي أحدًا ولن يلحق بنا ضررًا، هو هكذا منذ أن دخلتُ عتبة داره لم أسمع منه كلمة جرحتْ مشاعري، رجل لا كل الرجال، إنه هادئ، طيب، وقور، لذا أقول لك لا تخف من طيفه نحن نتمنى أن يكون فأل خير ويعود إلينا وفي يده غصن

زيتون وقطعة خبز قبل أن يذهب...لا لن يعود، لقد اشتقنا إليه كثيرًا، كثيرا يا ولدي ثمّ بكت في صمت قائلة:أنا مثلك تمامًا لا علم لي، قد تذهب بعيدًا، قد تتجرأ مدّعيًا أنّي خبّأت عنك سرّ غيابه و اختفائه، معك الحق في كلّ هذا ولكن ما أقوله صراحة وبوجع: :لقد ترك من ورائه فراغًايصعب ملؤه، مالت برأسها ثمّ عضّت على العناب بالبَرَد مكفكفة دمعها، مدغدغة مشاعرَ ابنها، وعمّا قيل عن سرّ خرجته. -هناك من قال:إنّه خرج في يوم مطير، كان المطر رحمة ومحبّة للنّاس أجمعين.

-ومنهم من قال:إنّه خرج في ساعة كانت الرُّعود توّقع في صداها البعيد طلقة شهيد. ومنهم من قال:إنّه خرج في لحظة كانت الدنيا توّقع في صداها لحنًا جديدًا.

-هناك من قال:مرّ من هنا على كتفه بندقيّة صيد وفي يده كسرة يابسة يمضغها على مضض. - قيل :مرّ من هناك كما تمرُّ الطّيور صباح كلّ فجر جديد باحثة عن مصدر رزقها، كان حلمه الوحيد أن يبني عشًّا أو خيمة أو دولة. -منهم من قال:مرّ من هنا كما مرّ الذين من قبله، هو مثلهم تمامًا فلاق على فلسفة جدّه. -منهم من فرض عبثًا أنّه حسب شيئًا، فطلعت له أشياء زرقاء مبهمة لم يفهم كنهها، ولم يصمد طويلا كأوراق الخريف في ليلة عاصفة. -منهم من قال بكلّ برودة أعصاب:إنّه اختفى بعيدًا خلف العتمة.

-منهم من قال:مرَّ من هنا، كان يغني عن الأرض، عن الوطن، عن الحريّة، عن قطعة خبز بيضاء، عن سنبلة قمح عامرة، لقد أقسم جازما:أنَّ السّنابل العامرة تنحني متواضعة، أما السنابل الفارغة تبقى واقفة، وهنا قفزت إلى مخيلته فكرة الكاتب حين قال:"إنّ السنبلة الناظرة إلى الأرض هي الممتلئة، وأنّ المنتصبة هي الفارغة وأنّ ينابيع الأعماق هي التي تطفئ عطش الأرض

و تندي اليابس، تحنُّ إلى الجذور، تحنُّ إلى الوجه الطيّب الذي أحبّ بصمتٍ وتألم بصمت، تتحدث معه تسمع صوتَه على البعد وقد هدجه الكبرُ، وصلبته الكبرياءُ "١.

تذكرت هذا ثمّ نمت نومة هادئة موسّدًا يدي اليمنى ؛تراءى لي عسكري يجري ورائي وفي يده هراوةٌ، وقد غُرِس في رأسها مسمار، جنديٌّ ذاهب في الطول، ركضت ركضَ غزالة طاردتْها وعولٌ ضالة، لقد سمعته يقول ليمهدّدًا:إما معي أو ضدّي، صرخت في وجهه مجيبًا :أنا لن أكون ظلَّ أحد، هذا ظلي، ظلي أنا، قد يسبقني مرّة ويكبرني أو يوازيني ولكنه لن يغيّر وجهتي، وجهته وجهتي أنا، وجهة أجداديّ وآبائيّ الأولين، إنّ عظام مقابرهم مازالت شاهدة على تضحياتهم، جذبني بقوة لا تقهر ماسكًا إيّاي من طرف بلوزتي السّوداء، بلوزتيالتي تغسل ليلا لتلبس نهارًا، هذا حظي والحياة حظوظٌ، لستُ أفضل منهم، أدرت رأسي، مفتشًا عن وجهي بين وجوه أبناء جلدتي، لم أرَوجهي، تشجّعت مستجمعًا قواي، وبقوة عصبيّة فلتُّ من قبضته، بلعتُ ريقي، أحسّستُبظمإٍ، استفقت على أثر هذا الكابوس خائفًا مركوبًا، وشرعت أتحسّس ملامح وجهي، وجهي الذي لا مرآة له كي أراه، وما معنى هذا وأنا منذ أن ولدت وأنا أفتّش عن هويتي..من أنا...ومن أكون؟، هكذا قلت..ثم أخذت أرقبُ اللحظة التي تجعلنيأعيش حياتي دفاعًا عن وطني، وطني الذي لا وطن لي غيره مهما انتحلت شخصيّة الآخرين، فأنا مجرد فلاق صغير في نظرهم، إرهابي لماذا؟لأنّي ابن هذه الأرض الممتدة من ماسنيسا إلى يوغرطة إلى الأمير عبد القدر إلى ابن باديس إلى العربي بن مهيدي، إنّها أرضي التي تطئ على تربتها قدماي، منذ ذلك الوقتوأنا أفتّش عن أناي، وحدها الأنا تسمعك هواجس يصعب القبض عليها أو نسيانها، وكيف أنساها وأنا جلد عظمها ؛

وأخذت أنشد:أنا بين هذا وذاك قصيدة جرحٍ طوتها يداك، أنا منذ فجر تاريخي أمازيغي ملء رؤاك، كيف اليوم أنساك؟.أأنسى وطني الذي شيّدته ساعداك؟ أأنسى أمّي التي أنجبتني وهنا على وهن فوق ثراك.أنا بين هذا وذاك، رحلة أزليّة نقشت على أشلاء بني وطنيّ، على جماجمهم وطأت قدماك.

ردّت أمّيسائلة:منذ متى صرت كائنًا لغويًّا وأنت لم تدخل المدرسة يومًا؟من ذا الذيعلمك سحر الكلام؟!. قلت لها يا ما:أنا عَلم في رأسه نارٌ، لست جبانًا لدرجة أنيّ أموت في جلدي، لست ساذجًا لدرجة إنّي أساوم وطني، صحيح أنّ المرء جُبل على حبّ الحياة والتعلّق بها، وهذه رغبة طبيعية، رغبة في مجاوزة الواقع والضرب عبر الحائط بكلّ ما يعكر صفوالحياة، رغبة جامحة في مواجهة ظلم الاستعمار.لقد سمعتميلود وهو يقول أنّنا عابرون عبر هذا المدى المفتوح، عابرون نحن على احتمالات حرجة خطرة، وهنا علينا أن نكون أو لا نكون، ولا يجب علينا أن نخاف من القتل فالقتل يتحول إلى طاقة متجددة، أما الموت ياعبود فهو حالة مجازية فلسفة لابد أن نفكر فيها ونعيشها.

-ومن يكون ميلود هذا.. من خلق الله؟

-ابن خالتي!

-ومن جيء به إلى هنا؟

لقد فرَّ من صفوف التجنيد الذي أرادت فرنسا إقحامه فيها غصبًا عنه، وعن أبيه وأمّه، وخطيبته وغصبًا عن أنف كلّ واحد منّا، وهو ليس وحده أمثاله كثيرون. - خطيبته

-نعم خطيبته

-ومن تكون هذه من خلق الله، لم أسمع بهذا الخبر.

-إنه يقول بأن خطيبته بنت معمر كبير، وصاحب مزرعة كبيرة، وإنه على

علاقة طيبة معها ولسوف يتزوجها عندما يحن الوقت، هكذا قال لي، ثمّ رمى بنظرة ملؤها الكراهية لهؤلاء الذين جاءوا من وراء حدود معتقدين بأن الجزائر وطنهم، هذا الذي جعله يتذمر أكثر.

-ومتى يحن هذا الوقت.

-هذا الذي أربكني واعتقد جازمًا لن يتزوجها.-ولماذا يا بني؟

-أشياء كثيرة تحيله على ذلك؟

وأين هو الآن؟

-هناك.

-لم أفهم شيئًا، هل صرت تخبئ عني سرًّا؟

.-لقد سمعته يقول بعد أن رمى في الأفق نظرة ملؤها الحقد إذا كانت هناك خدمة عسكريّة أقدمها لفرنسا فإن وطنيّ أولى بها، هذا ميلود الذي رفض التجنيد وفرَّ هاربًا من المدينة وجاء إلى هنا، لقد فتّشوا عنه في كلّ نقطة تفتيش، ولم تفلت من كيدهم حتى الأزقة، ولكنهم لم يعثروا عليه، وهنا قصدوا دار أبيه، كان ذلك في ليلة خريفيّة، والمطر يتساقط رذاذا، والريح تعبث بأوراق أشجار محدثة إيقاعًا موسيقيًّا رائعًا، وحدها الموسيقى تجعل المرء أكثر انسجامًا مع ذاته، هذه الذات التي لم نعطها من وقتنا ما تستحقه، لقد قال لي:بينما أنا مستلقٍ على فراشي لأوّل مرّة أحسّ فيها برغبة جامحة للاسترخاء والتفكير فيما يعترينا، إذتناءى إلى مسمعي طرقًا قويًّا على باب منزلنا خفت والله وارتبكت، بعدها اتجهت حافي القدمين صوب الباب ثمّ مددت ببصري من خلف ثقب صغير رأيت عساكر بأسلحتهم وهراواتهم، تساءلت في نفسي ماذا يريدون منيّ، بعدها انتعلت حذائي ثمّ قفزت من الباب الخلفي واحتميت بشجرة بلاتين ؛الشجرة التيلن أنساها وإلى الأبد، أخذت أرقب خطواتهم، لم يمر وقتٌ

طويل حتى هزّوا نافذتها ثمّ اقتحموا الدار أقلبوها رأسًا على عقب، وقتئذٍ كنت قد تسللت خفية بعد أن تأكدت بأن المكان آمن فلن يجدوني، التفت عسكريّ قصير القامة مكتنز الجسم سائلا أبي في لهجة حادة كأنّها البوق: -ابنك؟

-علم علمك سيّدي!

-كلامك خطر

.-بالعكس

-التحق بالجبل أليس كذلك؟

-لا أعتقد ذلك.

-لن يفلت من قبضتنا والخدمة سيؤديها سواء أحبَّأمكره.

-هذا الأمر لا يعنيني.

-أنت أبوه وتتحمل مسؤوليته.

- عمره القانوني يخوّل له تحمل مسؤوليته.

-صرت تفهم في القانون.

-سل المشرّع، ألست عسكريًّا؟.

-بلى، إذن أنت تعرف القوانين أكثر مني.

-معنى هذا أنّه من الفارين العصاة.

-هذا رأيك سيّدي ثمّ وبحركة نصف دائرية انسحبوا وهم يجرّون خيبتهم، منذ ذلك الوقت وهم يفتشون عنه، إنّه ميلود الشَّاب الذي داسه القدر أكثر، تجده دائمًا يبتسم رغم الظُّروف، والظروف صخب، أبوه كنّاس أرصفة وأمّه قابلة النساء، ميلود كان يردّد حكمة الأوّلين القائلة" إنّ الدنيا لا صاحب لها وإنّما رجل الدنيا وواحدها من لا يعوّل في الدنيا على أحد"، من يريد أن يتحرّر لابد أن يحرّر نفسه بيده ولا ينتظر شخص يحرره هي هكذا الثورة هي التي تغيّر

مجرى التَّاريخ وليس الانتقاد، فالشّعوب الأكثر احترامًا هي الشعوب الأكثر بدلا للدماء، أما إذا بقينا مكتوفي الأيدي ساكتين ننتظر من يُعطينا حريتنا، فإنّ ذلك يعتبر رجعًا بعيدًا، وإذا كان كل واحد يتحدث عن التغيير وهو عاجز عن تغيير ما بنفسه، فإنّ الليل لن يبزغ فجره وإلى الأبد.

إنّ فجر الحريّة الحمراء يا صاح يد مضرّجة بالدماء، والحريّة هبة من الخالق للمخلوق يا عبود ومن يعتقد عكس هذا، فإنّ الريح تتقاسمه وتعبث به وترميه في مكان سحيق، هكذا قال لي ميلود وأنا في المرج أسرح البقر، حياتي رعي وكأننا خلقنا للرعي فقط، لا حرف تعلمناه ولا معاشرة أصدقاء، همنا هذه البقرة التي تذر علينا حليبًا، حياة الأشقياء، وهنا صاح ميلود "دربُ الشَّقاء لا منفذ له"سمعت صوته، إيقاعاته، وقع حذائه، قلت في نفسي ليس من عادة ميلود أن يأتي في مثل هذا الوقت يبدو أنّ الوضع ما يعجبش، أو أنَّ شيئًا ما خرّب ذاكرته، عفويته، ليس من عادته السخط والتبرم ولكن ما هو عليه الآن شيءٌ يشبه الكذب، لقد قال لي بالحرف الواحد:إنّها حياة تافهة لا معنى لها ولا تستحق أن نعطيها أكثر مما تستحق من وقتنا، وقتنا غالِيا عبود خويا، ثمّ فتح منخريه ساحبًا نفسًا طويلا سائلا إيايّ:إلا تشمّ رائحة ما؟!

-كلا!

-إنّها رائحة البارود ولولاها لما جئتك، إنّها تنبعث من فوهة بنادق التي ستمطرنا حتمًا بفجر جديد ؛ثمَّ شخص ببصره نحو السّماء قائلا:كما هذه الغيمة تمامًا يا صاح التي فوق رؤوسنا، غيمة وستكبر محملّة مطرًا لتغسل أرصفة وتطهّر أرضنا البكر، أرضنا التي دنستها أحذيتهم الخشنة وهراوتهم الصماء، ورشاشاتهم، كل هذا لن يخيفنا، اسمعني جيدًا ياعبود هذه الغيمة ستغسل أرضنا أرض الآباء والأجداد، إني أكاد أسمع طقطقة عظامهم، أريتها يا عبود؟

إنّها غيمة ممطرة لذا أقول لك:على المحبّة نلتقي.نلتقي هناك مشيرًا بيده إلى قمة جبل، ثمّ مشى ضاحكًا وفي قلبه غصّة:تحيتنا، أراك بخير.قلت انتظر ولكن؟ ماذا؟

الآن لا موضوع هناك والمشاريع الصغيرة لا توقف نزول المطر، لابد أن ينزل و تخضر حقولنا. أنسيت الموضوع.قلت لك لا شيء، أغلى من وجودنا أراك بخير.حينها شخصت ببصري إلى السَّماء رأيت غيمةً سوداء قاتمة جمعت حوائجي،

وعدت إلى كوخي، كوخي أنا، على سدّته ينام بشر وتحتها مربض بقر، تذكرت ميلود، تذكرت كلامه بكل حيثياته فأيقنت أنّه على حقّ، وأنّ ما قاله ليس كذبًا جميلا محكما ثمّ أخذت أتمتم مخاطبًا أمّي في لهجة حادة قائلا : صيّرونا نعاجًا ونحن لا ذنب لنا.

-معك الحق، ولكن أنت شابٌّ مقبل على الدنيا والحياة لم تأخذ منك حاجتها بعد.

-هناك يا أمّي واجب أما الحقّ شيء آخر، في هذه الحالة يا أمّي من خسر نفسه لن يعثر على شيء، أنا شيء آخر، وليس بالضرورة كما تفكرين أفكر أنا، حدسي لا يخونني أبدًا، وهذا الوطن إن لم يحرره أبناؤه لن يأتي أشخاص آخرون من خارجه ليحرّروه، هذه حقيقة وأنا خلقت لأكونَ مثل أبي تمامًا، فلاقًا على فلسفته وقناعته.

-هوّن عليك، فالأشياء لست كما تراها.

-هذا الشُّعور لابد أن يحيا في قلوبنا صفصافة لا تحيد ولا تعرف الاستكانة أبدًا، هذا الشُّعور ينبئ بتضحية ووفاء وإخلاص، شعورٌ قائم على رفض كلّ آثم يريد أن يأخذ شبرًا واحدًا من هذه الأرض الطّاهرة، أرض الآباء

والأجداد، نحن أيضا نحبّ الحياة إذا استطعنا إلى ذلك سبيلا، فإذا كانت الدماء غاليّة فإنّ الحرية أغلى، هذه التربة لابد أن تبقى حرّة طاهرة، تربة حرّة معناها تربة صالحة للبذر، للحياة.إنيّ أعرفهم، ومدّ يده إلى التُّراب، أخذ حفنة وأخذ يلوّح بها قائلا:

هذه تربة لا تسوّس، لا تعفن، لا تباع، ولا تشترى، هذه الأرض جلد عظمنا، أما هؤلاء الذين يعتقدون سذاجة بأنّ هذه الأرض أرضهم وإنّها جزء من خريطتهم، هؤلاء مخطئون وسيدفعون الثمن غاليًا لن يمحى من ذاكرة الأجيال، جيلا فجيلا، وثقي يا أميّ أنَّ الحقيقة ستظهر مهما طال أمدها، لأنّ الجرائم لا تموت، لذا لابد أن يعودوا من حيث أتوا، وفي عيونهم شهوة ميتة، وعلى تقاسيم وجوههم خيبة أمل ليعرفوا قدر أنفسهم، وأنّ هذه الأرض أرضنا ولن نتخلى عن شبر منها ولو قُتلنا جميعا، وأكثر من هذا وذاك من جيء بهم إلى هنا؟وماذا يريدون منا؟ألا يكفيهم ألمنا، وجعنا؟، ولأنّي منك تمامًا فأنيّ لن أكون شيئًا آخر، هذا قراري وهذه إرادتي.

-نعم يا بني هذا هو الخيط الذي يجمعنا، ويوحّدنا، خيط يعيد لنا توازننا مع طبيعة هذه الأشياء الصغيرة التي ستكبر لا محالة كما كبرنا، وكلّ هذا من أجل أن تعلمنا أنَّ حبَّ الوطن من الإيمان، إنَّهاغريزة إنسانيّة فطرية، فطرة الله التي أفطر خلقه عليها ولا تبديل في خلقه، ولكن أعداءَنا كثيرون ولن يهدأ لهم بال إلا إذا حوّلونا إلى قطيع في زريبة أو يدجنوا أحلامنا، إنّهم يقولون "إنَّ إفريقيا لا تملك تاريخًا " أيعقل أنَّ قارة برمتها لا تاريخ لها أم أنَّهم كتابُ تاريخ؟ وهناك من قال مخاطبًا في استهتار "يا شعب فرنسا استول على هذه الأرض، خذها فهي ليست ملكًا لأحد".تصوّر يابني مدى استهتارهم بقيم الآخرين، هل هناك في هذا العالم من يتجرأ، ويقول كلامًا لا يقبله المنطق؛أوَليست هذه

جريمة ترتكب في حق شعب أعزل؟! أنا لم أعد أفهم شيئًا عدا أنَّحياتهم منذ وجودهم قائمة على النهب والسلب، وسياستهم مبرمجة على سياسة ملأ الفراغ.

-قال عبود:إفريقيا لها أكثر من تاريخ، وأخذُ شبرٌ منها سيكلفهم ضربات موجعة، صحيح أنَّ الأفريقيين عانوا ويلات العبودية البشعة وهم من بنوا أوروبا وأمريكا بسواعدهم المفتولة يوم كان الأمريكان يصطادونهم بالشّباك كما يصطاد الصيّاد سمكة، كلُّ ذلك من أجل أخذهم ليمارسوا أشغالًا وضيعة شاقة، كانت إفريقيا آنذاك غارقة في الظَّلام، ظلام الفقر والجهل والقهر، وعليهم أن يعترفوا بفضلهم وحين يعترفون تبدأ الحياة الحالمة.

ـالحلم ليس حرامًا يا بني.

-هذا ليس حلمًا بقدر ما أسميه حقيقة.

-صرت مؤرخًا.

-يؤتي الحكمة لمن يشاء.

-ومنذ متى صرت تفكّك مثل هذه الأشياء، وعهدي بك أنَّ لك بصرًا، ولا تملك بصيرة، أم أنَّ ميلود بثَّ في رأسك الصغير بنات أفكاره؟! -ميلود رجل لا كلّ الرجال لقد باحَ لي بسرِّه.

-ماذا قال؟.

-بعد أسبوع سنلتقي هناك.

-أين؟

-في الجبل!.

-وماذا تفعلان هناك؟

-نصطاد أرانب بريَّة.

- ولكن لا وجود لأرانب هناك

-هناك ما هو أخطر

-وما الخطب؟

-ما رأيته شيء يهزُّ النفس ويخلخل العقل، يهدُّ الأعصاب، يستفزُّ المرء، يؤجّج الغضبَفيأتي على المادة الرمادية يتلفها.صراخات تغطّي الأمكنة الفارغة تملؤها طنينًا تهلكها.، يفعل فعلته العبثيةتاركًا بصماته على حشاشة القلب يتعبها.

-يبدو أنَّك تخبئ عني شيئًا.

-نعم ولكنها صورة موجعة.

-صورة من؟فحياتنا صورٌ.

-لقد كنت البارحة مساء في دار خالتي عيشة لقد دفعت بي الحاجة أن أقصد دارها لعليّ أجد شيئًا أمضغه، غصبًا عني زرتها وهنا حدثتني وهي تمدّ لي بكسرة وكأس لبن، كيف أنَّ العساكر دخلوا الدار وأقلبوها رأسًا على عقب، ثم وقفت وقفة صماء مستحّضرة الواقعة وقد ماتت دمعتان في عينيها البنتين قائلة:لن أنسى ذلك وإلى الأبد، ثمَّ خطت خطوة أو خطوتين قائلة:

هنا كان عمُّك يسند ظهره إلى هذه الدعامة، هنا كان متكئًا كعادته وكأنّه أحسّ بشيء سيحدث لا محالة، ولم يمر وقتٌ حتى سمعنا وقع أحذية خشنة، فوقفت خائفة أدرت رأسي تجاه الباب رأيت ما رأيت، رأيت عساكر وقد ملئوا فمَّ دارنا مصوّبين رشاشتهم نحونا وأعينهم يتطاير منها الشّرر، حينها صاح أحد الجنودles mains en l’air :

ثمّ أومأ لهم ضابطهم فانتشروا للتو في جنابتها والبقيّة، أقلبوها رأسًا على عقب، لم يجدوا شيئًا، مضتدقيقة واحدة التفت عسكري فرأى مصادفة فتحة صغيرة، وقتئذٍ صاحَ جنديٌّ مصوّبًا رشاشه تجاه عمك، ماذا هذا يا

سيدي؟وماذا يوجد فيها؟ولكن عمّك لم يتحرك من مكانه ولم يقل كلمة، بلع ريقه وأخذ يرنو إلى اللاشيء، ولم تمضِلحظات حتى تقدّم ثلاثة جنود فأخذوا يخرجون ما فيها وعمّك ينظر إليهم وقلبه يفيض غضبًا، هنا عثروا على أحذية وعلب سردين مخزّنة، صاح أحدهم ما هذا؟ولمن هذه الأشياء؟صرت تاجرًا تموّل الإرهاب، كلكم فلاقة قطاع طرق، وبحركة عصبيّة ضربه بعقب الرّشاش على رأسه فأسقطه أرضًا، فحملوه دون رجعة.وليتُ وجهي نحو خالتي عيشة رأيتها تمسح وجنتيها، هذا ما حدث، ومالت برأسها الصغير مسندة إيّاه، بكت خالتي عيشة وبكيت أنا معها، ولكني وفي لحظة لاشعورية صرخت:ولكن أين هو الآن؟.

-ردت:هو الآن ينام بين هذه الغيوم.

-معنى هذا أنَّ السَّماء ستمطره عما قريب.

-لا.. ياعبود!

-إذن أين اختفى هذا الذي لا أستطيع أن أجزم لك فيه، لقد وصلتني أخبار كثيرة مختلفة مصادرها هناك من قال :أنّه مازال حيًّا يرزق. وهناك من قال :أنّه قُتل وهو الآن شهيد.

-ومنهم من قال لقد تمَّ شحنه في باخرة ونفيه إلى كاليدونيا.

-معنى هذا ليس ببعيد عنّا.

-بعيد كلّ البعد.

-وهناك من تجرأ وأدعى بأنّه تمكن أن يفرَّ من زنزانته.

-رائع!

-لا تتسرع يا بني قد يكون هذا مجرد ادعاء.

-لا أعتقد هذا ولكن كلّ ما نتمناه أن يكون على قيد الحياة ولا تهمّ الجهة

التي يقيم فيها الآن، إنّها أرض الله، ثم جمعت حوائجي مردّدا قائلا :

أراك بخير خالتي عيشة، نلتقي في ساعة الخير.

-إنشاء يا ربّ العالمين.

٣

-ملأت رأسك بما هو أكبر منك. - هذا ما يجب!.

-ليس بالضرورة. -عشّ حياتك ولا تتدخل فيما لا يعنيك. -ولكن هذا يعنينا جميعًا.

ما زلت صغيرًا يا بني

أو لم أقل لك بأنّي فدائيٌّ صغير. -لم نرَ الجنود الذين قتلتهم بعد؟

-إنّ غدًا لناظره قريب.

-هذا رأيك ثمّ خرجت قاصدة الحقل وهي توصي ابنها ألا يخرج حتى تعود، في حين أنَّ عبود أصرَّ في تحدٍكبير أن يزور خالته، فلما أحسَّ بأن أمه ابتعدت عن الدار خرج من الباب الخلفي متجهًا رأسًا إلى خالته ؛ولمّا عادت الأمّ كعادتها مساء وهي تنظر في كلّ زاوية من زوايا كوخها، لم تعثر عليه ثم أخذت تنادي وما هي إلا لحظات حتى لمحته متسللا من الباب الخلفي فتلقفته سائلةإياه في لهجة قوية:

أين كنت؟

-في دار خالتي عيشة -عدت مرّة أخرى!. -لأرى العسكر. -وماذا سيفعلون هناك. -المجرم يعود إلى مكان الجريمة. - هؤلاء لا يعودون لقد

فعلوا فعلتهم الدنيئة الوقحة يا بني قتّلوا رجالا وهجّلوا نسوان وأنت لماذا عدت إلى هناك؟ -إطلالة فقط قصد تفقد أحوالها. -وكيف هي الآن؟

-حالها ما يعجبش!. -قدر الله وما شاء فعل. -إذن أنت على علم يا أمّي!

-نعم يا بنيّ!.

-لِمَ لم تخبرني؟!

-لن تفعل لها شيئًا، ووجعها أكبر منك بكثير ولن تقدر على حمله.

-على الأقل؟ -ماذا؟ - نقف جنبها. -لن تضيف شيئًا.

-نواسيها في مصابها الجلل.

-ما تخفاك خافية!. -عندما نكون محل ثقة لا شيء يخفى عنّا، كلّ شيء يصلنا في وقته، هناك ما هو بائس وحزين أكثر من هذا!.. - ماذا؟.صاحت أم عبود في وجهه، يكفي، ثم أخذت تبكي.فاستدركت فارط أمري ورحت أهمس في أذنها اليمنى:ولأنّي منك، مثلك تمامًا، لقد نزل فيّ الغضب بركانًا، وتأججت ناره، ولن تنطفئ جمراته، ولن ينقطع دخان رماده...لا ولن يخمد، إنّه شيءٌ في التربة، شيءٌ في دمنا، شيءٌ في عروقنا، هذا الرماد رماد ماضينا وحاضرنا، رماد ذاكرتنا، هذا الرماد لابد أن يتحول إلى جمرٍ محرق، يحرق كلّ من يمدّ يده علينا.

-الغضب بدايته جنون وآخره ندم.

-ولكن هذه جرم يرتكب في حقّنا!

-ومنذ متى كانت هناك حروب نظيفة، الحرب هي الحرب لا وجود لقيم أخلاقيّة تحكمها أو لقوانين دوليّة تردعها!

-ولكن هذا الفعل إجرامي!.

-جرائم الحرب كثيرة وضحاياها كثيرون، ولا وجود لحرب نظيفة كما

تتصورّها، الحرب إما أن تُقتل أو تَقتل لا شيء غير التعذيب والنفي والتشريد والإبادة.

-ولكنهم يتحدثون ويقولون أنَّ فرنسا جاءت لتعلمنا أو هكذا أوهمونا.

-بل لتزج بنا في أروقة ومتاهات وأنفاق يصعب الخروج منها، ومن يعتقد عكس هذا فلا علاقة له بما يجري.

ولكن اللّيل مهما طالأمده لابد أن يبزغ فجره.

تبسّمت أم عبود وهي تربت على كتفه هناك قبس من نور هناك. -أين؟

-في آخر النفق، أليس كذلك؟انظر معي، هل رأيت شيئا؟.

-الأشياء ترانا كما نراها. -هذا صحيح ولكن هذا القبس سينير طريقنا.

-هذا الإحساس يا أمّي يجب أن ينبت في قلب كلّ حرّ أبي، إنَّه إحساس بالرفض، تحد لكلّ معادلة، هذا القبس حلمنا جميعًا، حلم إنسانيّة متمرّدة على أنظمة فاشيّة، إنّه ذاكرة رفض، أرض طيّبة والعدو يمارس لعبته الدنيئة الوقحة، لابد أن نغيّر هذا الواقع، نديره حسب رغبتنا، شعب يحبُّ الحياة شعب يقاوم، يواجه، يضحي كلّ هذا من أجل أن يعيد للنهر ماءه، وللغابة غمامها، أما الخوف فأنّه يقتل فينا الرغبة في التحرّر، ولأنّي منك، مثلك تمامًا فانّي أصدقك القول، ولن أكون إلا مثل أبيّ فلاقًا على فلسفة جدّه. -مغرور أنت واندفاعي!

-في مقدوري تحمّل ما هو أكثر!

- هذا الذي يخيفني!. -لمَ؟ -مازلت طفلا لا تقوى حتى على فعل الجوع.

-لقد صبرت يا أمّي على وطنيّ طفلا قاصرًا لكن لن أصبر عليه مهانًا ذليلا.

ردّت أمّه بعد أن حرّكت جمرات كانون لم تخمد بعد:الدنيا لغز يا عبود قد تعرف شيئًا وتغيبعنك أشياء، إنَّ لسان المرء مطيّة خطيئته، قد تفلت منك كلمة صغيرة تكون وبالا وطلقة قاتلة، وأنا لا أريد أن أراك نعجة مذبوحة أمامي

لقد ولدنا ملائكة وكبرنا، صغرت أسماء في عيوننا وسقطت أخرى من ذاكرتنا وعدنا نخاف من بعضنا بعضا، ولم يعد الواحد فينا يثق في الآخر، الجوع لا يقتل صاحبه يا عبود ولا أحد يعلم ما في بطن الآخر، والعطش لا يميت صاحبه وقد يشرب المرء بولَه وهذا ليس عيبًا، الضرورة تبيح المحظورة، الخوف كلّ الخوف من الخيانة، الخيانة تقتل يا عبود.

- لم أفهم شيئًا.

-رأسك صغير محشو بالغرور.

-ولكن رأسي قدّ رأسك. -أنت أبله وقد ترتكب حماقة.

-حماقة!.

-أي نعم ألديك اعتراض؟

-ولكني الآن صرت رجلا.

قالت ضاحكة: يمكن أن تكون رجلا ولكنك لست فحلا!

-من لا يغني لا ينتصر. -هذا الحكم أكبر منك حجمًا. أوفياء نحن في زمن الخيانة

-ما هذا الذي تقوله؟-

هذا ليس عنوانًا لكتاب قرأته أو لنص فلسفي تأملته إنَّما هي يوميات نعيشها بوجعنا أو أكثر!

-لا بد أن نغنّي للأرض، للوطن، للحرية، لا بد أن نغنّي حتى ننتصر و نحقّق آمالنا، أحلامنا، يجب أن نصرخ وبصوت عالٍ حتى يسمعنا العالم كلّه و يعرف مقصدنا، مقصدنا بسيط لم نطمع في أرض الآخرين، ولم نمدّ أيدينا على رقاب الناس، أو في جيوبهم، مطلبنا تحرير أرضنا ليس إلا.

-الأشياء ليست بسيطة كما تتصوّرها، فالنار تحرق يا عبود إ.لكن عبود نهض

نافضًا يديه وراح يجرُّ خطواته جرًّا، قاصدًا فراش نومه، وأيّ فراش هذا، هذا إذا اعتبرنا أنّ هناك فراشًا يليق بكرامة الإنسان، محظوظ هو أن عثرت أمّه على cartonوقد يكون مبللا بالبول لأنّه حالات يتبول ليلا والخروج ليلا ممنوع، والويل لمن يغامر ويضع قدميه على عتبة باب الكوخ لقضاء حاجته، التعليمات تمنع هذا، وللّيل رجاله "والغالط في الدنك راح"، واللّيلة لم تكن كعادتها كانت ليلة ممطرة حلمًا وأحلامًا، موّرقة منّبئة بهواجس زرقاء لم يفهم كنهها، لقد رأى فيما رأى، رأى في حلمه ما رأى، تراءت له امرأة في العقد الثالث، تبكي بكاء طائر مهيض في ليلة عاصفة، بكاء امرأة مقطوعة من شجرة، امرأة تجمع الحطب مشكلة كومة كبيرة فوق مكان ما تهرول، تسرع الخطى، عساكر هادئون يراقبونها بأسلحتهم اللامعة، أعناق الناس تشرئب لا شيء يعلو فوق صوتها، نحيبها، ولكن كلاب العسكر تزداد نباحا، نبضات القلوب تزداد خفقانًا، النار تشتعل، الجنود يتحركون يركضون، المشتى أضحت في ضبابيّة والدخان يتصاعد، ألسنة النار تمتد آكلة الأخضر واليابس واللوحة لم تكتمل بعد، هناك ألوان تنقصها والمرأة تدعو ربها، تقف وقفة صماء، تنظر من حين آخر إلى السماء وقد اغرورقت عيناها دموعًا رافعة يديها داعيّة ربّها :استرهم يا ربّ

!آمين يا رب العالمين، استرهم ظلمة المغارة ولهيب النار تكفيهم يا رب.

إنّهم ثلاثة إلى أربعة مجاهدين والعمّالة التي تعمل ممرضة لقد جيء بها في سرية تامة قصد تقديم إسعافات أوليّة لجندي أصيب في كمين نصبه العدوّ وألحق به جروحًا بليغة، لقد جيء بها قاطعة وادي النيل حافية القدمين، مشمّرة على فخديها البضتين، فعلا أنهما يثيران الشهوة، هذا ما قاله من رآها على ضفة الوادي، لقد أعجبته كثيرًا ولولا هذا المسبّل المرافق لها لتحرش بها.

بعيدًا هناك خلف العتمة امرأة تبكي بكاء طائر في ليلة عاصفة مردّدة كلمات مشفّرة، الذئاب بزتها واحدة، واللوحة لم تكتمل بعد، واللوحة لم تكتمل بعد هناك ألوان تنقصها، كلمات اللّغز يعجز العقل على تفكيكها، أوالانتباه إليها، أعمدة الدخان تعمّ المكان، تملأه على غير عادتها، تتشكل في رحم الفضاء راسمة خريطة وطن، والوطن يكبر في عيون أطفاله يحمل قدرة رهيبة هائلة، طعمها طعم ليمونة، يفتح شهية الاستشهاد، يفتحها على مدارات مجهولة عبر بوابات القتل.إنَّ القرية مقبلة على مواجهة قاتلة لم يمر وقتٌ طويل حتى لمحت عن بعد سيارة جيب قادمة من الجهة الغربية، خبَّأَ رأسه تحت وسادته، تقلّب على جنبه الأيسر نهض مذعورًا كالذي مسّه أذى، قفز من فراشه راكضًا، واتجه صوب المكان، وقف على شفة حفرة، بدت له ثعبانًا أحمق يمتد يتلوى بعيدًا تحت صخرة ممتدة أطرافها، تأملها لم يستطع رصد عمقها، وأخذ يتأمل فراغاتها الهائلة تناءى إلى مسمعه صوت أمّه ينبعث، مدّ ببصره لم يرَ شيئًا، تراجع قليلا، فاعتقد أنَّ المكان خطر، غامض، أو ربّما مكان ملعون ولمَ لا؟تذكر مقولة أمّه "الدنيا مقبرة الأسرار" ومال برأسه مسندًا إيّاه إلى جدع الشجرة، أشياء كثيرة قفزت لذاكرته جعلته مصدومًا، وتاه، لاشيء هناك، ولكن هذا الصوت سمعته وليس غريبًا عني، إنّها هي.هي...حينها نبتت في عمقه أشياء بقيت عالقة بين تلافيف ذاكرته، عاد إلى الوراء، تراجع قليلا، مرّت بذاكرته صورة رجل رآه ينسل منه ذات عشيّة مطيرة، لم يكن كهلا هرمًا، لكن بزّته زيتونية يميل لونها إلى الرماد، تذكّر هذا وعضَّ على شفته السفلى إنّه هو.. هو..ثمّ خطا خطوات، طفرت إلى ذاكرته أشياء كثيرة مبهمة، انتابه الشّك، اعتقد في بداية الأمر أنَّه رجلٌ مسّه جنون أو عابر سبيل تقطّعت به السُّبل أو ربّما يكون رجلا فوق العادة، أو ربّما يكون راهبًا ملَّ الظّنون، أو قد يكون رجلا تافهًا طوحت

به الرّيح وضاع من قدميه الطريق، فوقف مسمّرًا نظره، وأصرّ على المغامرة.إنَّ شيئًا ما ينمو بداخله، يدفعه توقًا لمعرفة شيء ما، شيء لم يفهم كنهه ألبتة، وهنا طفرت إلى ذاكرته أسئلة قلقة، وأخذ يتساءل من جيء بها إلى هنا؟وكيف تجرؤ على فعل هذا؟ومن تكون هذه من خلق الله؟.إنّه للغز أزرق مبهم لم يقدر على تفكيك مفاصله، وكلما حاول التفكير ضاع من يده رأس الخيط، أعاد النظر لم ير شيئًا تحت حافة المنحدر عدا فوهة تتوسطها صخرة، قفز، دنا، مدّ يده مازحًا إيّاها، اختلس النظر لم يرَ شيئا، حاول مرّة أخرى، لا شيء هناك، فجأة تناءى إلى مسمعه صوت خافت، خاف وارتعد، صعد قلبه في صدره، ارتعشت يداه، تراجع قليلا تذكر قولة أمّه الدنيا مقبرة الأسرار، عاد بذاكرته إلى الوراء لكنه لم يعثر على شيء، وأخذ يفكر مليًّا.. ماذا عساه أن يفعل، وقدأصرَّ على التحدي، عاودته الفكرة هزّته على غير العادة، واللوحة لم تكتمل بعد هناك ألوان تنقصها و تساوت الأشياء رغم اختلافها وبدا له الأمر سرابًا أو كالذي تفلت من بين أصابعه الفريسة ويمسك على الظّل.اختبأ خلف جذع شجرة زيتونة مباركةذاهبة إلى السَّماء، رأى أمَّه تخرج من هناك، كتم أنفاسه، فجحظت عيناه، تلاها رجل، رجلان، وعلى أكتافهم بنادق صيد، بلع ريقه، وانسحب مسرعًا تجاه كوخه مصدومًا، وشرع يفكر، بنى بناءات ولكن لم يجد لهذا المشهد حلّا، من تكون؟ما الذي جرَّها إلى هناك؟وانتابته هواجس كثيرة خرّبت ذاكرته الصغيرة وخلص جازمًا، أنَّ الأمر ليس بسيطًا كما كان يتصوّر، وبعد لحظات وطأت قدما أمِّه عتبة الدار سمعته ينشد في صوت شجيّ:

إنّي هنا..مازلت أقرأ، أخبار قريتي الصغيرة باحثًا عن رحلة ضاعت منيّ
أو ضيعت غصبًا عنيّ، سرقت مني لعبتي.
وأنا مازلت طفلا صغيرًا

إنّي هنا...من يعيد لي طفولة هربت عبر شوارع قريتي. ردّت أمّه وهي تتظاهر بأنّها كانت في الحقل وهاهي حاملة رزم قمح، وأعشاب بريّة تعينهم على شظفالعيش ثمّ أردفت تقول"إذا شبعت البطن الرأس يغني"أوليس كذلك يا بني، ولكن ما إن جلست القرفصاء حتى تلقفها، والآن ألا تخبرني أين اتجهأبي، و لمَ لا يعود؟!..سيعود يا ولدي ولا داعي للقلق، إنّه في الطريق إلينا، أنه قادم وسيصل إذا شابَ الغراب أفهمت يا ولدي، أفهمت؟..هذا الذي لم أسمعه منذ أن خلقت ولا أعرف سرَّه رغم أنّي خالطت صيادي الطّيور ولكن لم أسمع منهم مثل هذا الكلام، كلامك يا أميّ غريب ويتكئ على لغز كبير يشبه إلى حد ما، ما حدث لخالتي عيشة أرجو فقط ألا يكون جوابا عن سرِّ أبي.

-لا تذهب بعيدًا هذا لا علاقة له إطلاقًا بما جرى. -معنى هذا أنَّ أبي كان واحدًا من ضمن الرجال الذين انسلوا من عمق المغارة.

-وقبل أن يكمل حديثه، مدّت يدها، وسدّت فاه :

إيّاك أن تعيد هذا الكلام مرّة أخرى.

- لا تخافي!

-بالعكس إنّه الخوف بعينه وهذا ليس جبنًا، الحيطة والحذر، من خاف نج ومن نج نجاه ربه، هذه أشياء قاتلة، وأنا لا أريد أن أراك نعجة مذبوحة مرمية على حافة طريق أو في مزبلة ما، أرجو فقط، أن لا تلفظه شفتاك.

-ولكن من ذا الذي جرّك إلى هناك. -تقديم خدمة ليس إلا. - إلا توجد امرأة أخرى في الدوّار؟ -كل واحدة ومهمتها. - معنى هذا؟ -ما فهمته. - وعاد بذاكرته إلى وراء تذكّر ما سمعه من قبل، لقد سمع أنَّ الطير لا يطير بجناح واحد، ولابد من الجناح الآخر، لم يفهم في بداية الأمر خبايا هذا الكلام ولكن ما إن رأى أمَّه حتى أدرك سرَّه، ثمّ تردّد وقع هذه الكلمات أحاله على حقيقة

أخرى.قال :غريب هذا ولكن في ظلّ هذا الفعل الغريب هذا هو الأليف.

-ليس بالضرورة. -إذا كان هذا فدائيًّا فمن التي تتكفل به؟من يطبخ له؟ ويغسل قشّه؟

-الأمر بسيط جدًّا. -ألا يوجد الطباخ والغسّال من الرجال!

-ليس بالضرورة!

-ماذا؟ - أنتبه فقط إلى نفسك. وتوالت الأيّام عاصفة، وكبر الطفل وازدادت صداقته مع هؤلاء الرجال توطدًا، صار لحمة منهم، أصبح يلتقي بهم كلّما انسلوا من المغارة، أو قل كلّما دعت الضرورة إلى تسخيره لنقل البرّ أو الشعير أو الحنطة إلى جهة ما أو إلى مركز ما. -قالت له أمّه ذات مساء والطيورعائدة لأعشاشها:هذه الأروقة، نفقها مظلم، ومتاهاتها قاتلة حذار أن تلج بوابتها!

-لكني أعرفهم وأعرف خباياهم. -في اعتقادك. -بالتأكيد ما زال حليب أمك بين أضراسك، أنا من مددت بفمك لأرضعك حليبًا دافئًا، حليب الأبدية ولا يمكن أن تكذب عليّ، فمن يكذب على نفسه لن يعثر على شيء، كن ذكيًّا ولا تدخل مساحة حتى تعرف مخرجها، الرصاص لا يرحم أحدًا لا عاطفة له، لا يعرف أحدًا، ويعزُّعلي أن أراك جثة هامدة وأنت بريء كلّ البراءة، ، أبق في حدائك ولا تحاول أن تحشر نفسك في أشياء أكبر منك حجمًا، أو لم تسمع بعمك الطيب إنّه رجل لا كلّ الرجال، أو قل مناضل لا أقل ولا أكثر، ولكن الخيانة قضت عليه، لقد وشي به، قالوا أنّه يتعامل مع الفلاقة، ويمدّهم بأخبار عن تحرك المعمّرين والعسكر داخل القرية منذ ذلك الوقت وضع تحت الرقابة، عيون النّاس لا ترحم أحدًا ولم يمر وقت طويل حتى تمَّ اعتقاله، النوافذ لها سكانها، أفهمت يا صغيري ؛قال له ضابط فرنسي: أنت من الآن سجين

حريتك ونحن جئنا من بلد الحريات، تبسّم الطيب نصف ابتسامة ثمّ غاب خلف نقاب الغضب، أومأ الضابط برأسه عندها مسكه جندي من خلف رقبته وأقتاده أمامه ثم زجّ به في زنزانة لا تكفي طول قامته، لقد عُذب عذابًا وحشيًّا عند استنطاقه عابثين بفحولته، ثمّ أدخلوا رأسه في حوض مائي مكهرب، لكنه أبى أن يدلي بخبر، لم يش بأحد بعدها تبوّلوا عليه جماعيًّا ومنذ ذلك الوقت اختفى أثره.

-هناك من قال أنّه وضع في كيس بلاستيكي وتمّ رميه في البحر. -هناك من قال لقد تمَّ رميه بالرصاص ودفن ليلا بعيدا عن الأنظار. منهم من قال تمّ رميه على حافة جبل لتنقر الطير رأسه. -ولكن هذه الأشياء طبيعية جدا. -أنت شخص مغرور. -في اعتقادك!-ومن تكون أنت؟ -أنا سي عبود. -ضحكت أمّه مجيبة :كم أنت ساذج وبسيط، ومن يسمع كلامك يعتقد أنّك قائد ناحية عسكرية، أو زعيم تنظيم مسلح، وأنت لا شيء إن لم أقل:أنّك لم تخلق بعد ولم تلدك أمّك بعد، من تكون أنت بالنسبة الذين اكتووا بالنار وألم الفجيعة، مفجوعون نحن يا ولدي منذ أن خلقنا ونحن من نار إلى نار، قتلتنا أعراس الموت ومراسيم الدفن، ولسنا ندري ماذا يخبئ لنا الغد وقد اختبأ الألم بين جوانحنا، قدر أحمق الخطى أو أكثر. -ولمَ ليست أقدار حيكت في الظّلام ورغم هذا سيبزغ الفجر وسنصل. -سنصل يا بني وينفلق الصبح نورًا. -هذا ما نريده إذا استطعنا إليه سبيلا. -أمش ببطء لتصل بسرعة. -لا تقلقي فأنا أعرفهم وأعرف أسرارهم.

- كيف؟ -لأنّي خالطتهم وعاشرتهم وأكثر من هذاأعرف ما يحدث بينهم وبين أبناء المعمّرين، والعلميات الفدائية التي كانوا ينفذونها من حين لآخر في حق القياد هؤلاء الذين نصبهم المعمّرون أسياد، ومنحتهم رتبًا وأموالا كلّ

هذا ليكونوا عيونها التي لا تنام.

-قال معمّر مخاطبًا مزارعًا آخر لماذا يكرهوننا؟ -أجابه عن مضض وماذا قدمنا لهم حتى يحبّونا. -"نحن الشّعب المستنير السائر الذي عبر عباب البحر من أجل إخراجهم من الظلمات إلى النور"

-هذا ما تردّده وسائل الإعلام ورجال السيّاسة، السيّاسة يا صاح لعبة قذرة، إن السياسة يا صاح فراغات ودوائر مغلقة. -معنى هذا!

-أكثر!

-ولكني سمعتهم يقولون :إنّ إحراق الغلال وإفراغ المؤن وإلقاء القبض على الرّجال العزل والنساء والأطفال أشياء ممقوتة

.-هذا ما سمعته!. -وأنت؟. إذا كنّا واقعيين فأني أقولها صراحة لقد اقترفنا في حقهم مجازر، هؤلاء وقفوا جنبنا في حربنا ضد ألمانيا وتمّ تجنيدهم وهناك من لم يعد إلى أرض وطنه، إلى أبويه، دفن دفنة غريبة بعيدًا عن أهله. أنسيت؟!هؤلاء فعلا وقفوا جنبنا في حربنا ضد ألمانيا وحلفائها، ووعدناهم وعد الحرّ بأنّنا سوف نمنح لهم حريتهم وانتصرنا وقابلنا فرحتهم بالحديد والنار، العظيم يا صاح من يقف جنب المظلوم لا من يساند الظالم، لذا هم الآن يكرهوننا ويمقتون كلّ من يثق فينا. -أو تعتقد أنَّ العسّكر ليس على علم بهذا؟. --هو على علم بهذا ولا يخفى عنه شيء وعلى هذا تجده من حين لآخر يلاحقهم، وحالات يمنعهم حتى من دخول القرية. -لماذا؟ -نتيجة تعاطفهم وتعاونهم مع الفلاقة وهذا الفعل ألحق ضررًا بأمننا وعيوننا التي لا تنام. -ومن هؤلاء؟

٤

-القيّاد عيوننا التي نرى بها كلّ شهم أصيل، ولولاهم لما رأينا الضوء.

-معنى هذا. نعم، لقد تمكنوا من تصفيّة القيّاد الذين منحناهم ما لا يجب أن يمنح، نصبناهم أوصياء عليهم وذلك بإلاغراءات والنفوذ والمناصب ومنحناهم أراض دون أن يدفعوا فرنكا واحدًا، مئات هكتارات من الأراضي أصبحوا يتصرفون فيها كيفما شاءوا ومتى أرادوا، أمسوا بين عشية وضحاها أغنياء، أصحاب قرار، كلّ هذا؟من أجل أن يتعاونوا معنا ويقفوا جنبنا كالطود في وجه الأحرار لتضييّق الخناقعليهم و جهض تفكيرهم الثوري وقتل الحلم في عيون الأطفال، كلّ هذا من أجل القضاء على الفلاقة وعلى معارضتهم ووقوفهم في وجه جرائمنا التي ترتكبمن حين لآخر في حقّ أبرياء عزل.لهذا شجعناالقيّاد بالمال ومنحناهم امتيازات حتى يكونوا في خدمتنا ويبلغوننا عن أيّ تحرك يروّنه يشكل خطرًا على أمننا ووجودنا وكان لهم هذا في بداية الأمر، وعاثوا في البلاد فسادًا، مال وجاه وقضاء مآرب على جثث وجماجم شعب بريء، هؤلاء القيّاد أقولها صراحة دفنوا أعزّ شبابهم في التراب، باعوا وطنهم وتعلّقوا بأوطان الآخرين وهم على دراية أنَّ الذي يتمسك بوطن غير وطنهكالذي يتمسك برغوة وفي نهاية المطاف لن يمسك شيئًا لهذا بدأ القتل

يطال أعناق القيّاد واحدًا وراء الآخر، وكانت آخر عملية فدائية في حق قايد (x)حيث تمّ استدراجه بعيدًا عن القرية وبعدها نُفذ في حقه الإعدام ثم لاذوا بالفرار، كان هذا بعد أن تتبعوا تحركاته وتأكدوا فعلا أنّه يمدّ العسكر بمعلومات عن الفلاقة، لقد حذروه مرّات ولكنه تمادى في غيّه وذات مساء تمّ إخراجه من القرية بطريقة ذكية خيطت خيوطها من قبل شبان يلعبون كرة القدم مع أبناء المعمّرين في ساحة مستطيلة الشكل محاطة بحائط وقد غرست على أطراف طرقاتها أشجار البلاتين، أشجار غرسها المعمّرون اعتقادًا منهم أنّ الأرض أرضهم وسيرثها أبناؤهم، إنّها فعلا شاهدة على حقبة تاريخية دامية لا ولن تمحى وإلى الأبد. قال عبود :إنّ هناك ما هو أدهى من هذا وذاك.

ماذا؟.

إنّها حكاية الشيخ التقي الورع الذي تمّ َاستدعاؤه من قبل العسكر قصد مساءلته عن حادثة عاشتها القرية قي صبيحة ما، صبيحة لم تكن عادية، لقدأحالتني على عالم أغبر، والعالم إحالات، أشياء صغيرة نبتت في داخلي، نمت أشجارًا ورغم أهميتها لم أعطها من وقتي ما يكفيها، لكن الجو منحها معنى لطيفًا ملونًا، كانت صبيحة شاعرية، نسمات هوائية منعشة، أوراق أشجار يعبث بها الهواء، يبعثرها، مطر يتساقطوالريح يفعل فعلته الوقحة.

-ماذا جرى هيا تكلم؟

-جرى ما جرى.

-لم أفهم.

-ستفهمين.

-هل قتلوه؟

- استشهد والله يرحم الشهداء.

-ولكن شهداءنا كثيرون.

-هذا الشهيد لم يكن محظوظا.

-كيف؟

-لقد أخرس الظلّ مسدسه.

-مسدسه!

-هذا شيء أربكني.

-لا داعي للقلق.

-لماذا؟.

-الفدائيّ من كان ذكيًّا.

-صرت حكيمًا!.

-أكثر، لأنّ في المعركة يا قاتل، يا مقتول، وفي هذه الحالة يجب أن تفكرفي كلّ خطوة تخطوها وإلا دفعتحياتك التي وهبها الله لك، الفدائيّ الذكيّ من لا يدخل موضعًا حتى يرى فيه مخرجًا.

-ما فهمتش!.

-كان في مقدورهأن يتأكد من مسدسه قبل أن ينفذ عمليته ولكنّه لم ينتبه، كان هذا في صبيحة من أيّام الشّتاء حين قدم إلى هذه القرية لتنفيذ عملية فدائية كُلّف بها من أجل أن ينضم إلى صفوف جيش التحرير، وأنت على علم يا أميّ بهذا.

-أيّ نعم -لابد أن تقوم بشيء ما، هذا الفعل بمثابة عربون صدق ووفاء، ولكن هذاالشّابحين همّ بإطلاق رصاصته على القايد، لم يكن الحظّ حليفه فأخرسه الظلّوهنا صوّب عسكريّ فرنسيرشاشه نحوه فأرداه قتيلا، وحينها حُصرت القرية وسُدت منافذها، وكبرت اللعبة وتعالت الصرخات، إنّها

صرخات قوات التدخل:

إن قفوا لا أحد يتحرك، وتمَّ حشد النّاس كالقطيع في زريبة وسط القرية، والساحة تضيق شكلها يأخذ شكل متوازي أضلاع والناس في حلقة دائرية والجثة هامدة، مشهد أحال القرية على حالة نفسية قلقة، منهم من جيء بهبعد إخراجه على وجهه من منزله، ومنهم من أخرج من محله وتمَّ تجميعهم في ساحة القرية، لقد حشدهم جميعًا ولم يفلت من أهل القرية أحد، لقد جيء بهمزُرافات ووحدانا والويل لمن رفض الانصياع للأمر، أو عدم الامتثال للأمر و المثول أمام العسكر، لقد امتثلوا كمثل النّعاج سيقوا أمامهم زمرًا، وتمَّ حشدهم في ساحة القرية والساحة تأخذ شكلها الدائري، ساحة القرية تضيق على شكلها الرتيب، ساحة ليس لها نظير، يكفي أهلها حجة إنها على شكل شبه منحرف بأضلعها اللامتوازية، غير متزنة في تحركها العشوائي المريب، لم يطرأ عليها طارئ، أنها شاهدة على وقع أقدام نتنة، معماريتها تكاد تنهار بفعل تداعيات أزمنة غابرة، بناياتها من طوب مرفوس بالتبن وبقايا أحجار صوان، وما من يوم يمرّ إلا وتتعرياكثر، كأنّها ملتقى تصادم حضارات تداخلت فاعلة متفاعلة، توحي بعذابات إنسانيّة مقرفةكان هذا منذ العثمانيين والأتراك الذين مرّوا من هنا، بناياتهم تدل على أنهم عاشوا هنا ثمّ انسحبوا عبر الزمن واللوحة لم تكتمل بعد هناك شيء ينقصها والمشهد تراجيدي فعلا وهذا الشّاب ممدّد قدّامهم جثة هامدة باردة، حينها جيء بشيخ ورع تبدوعلى وجهه ملامح النبل والوداعة والتقوى وقد بلغ من العمر عتيا.

-قال ضابط عسكري:أنت شيخ ورع رجل دين أليس كذلك؟

-بلى، ما الخطب سيّدي؟

-ما تراه.

-ردّ الشيخ بعد أن سوى برنوسه:قدر الله وما شاء فعل.

-ردّ الضابط لم تقل شيئًا يا شيخ

!-قلت ما فيه الكفاية.

-هل تعرفه؟

-لم نر هذا الوجه من قبل، هذا الوجه لا وجه يشبهه في هذه القرية، تقاسيم وجهه غريبة تمامًا وليس بمستبعد أنّه جاء من وجهة ليست ببعيدة، قامته الفارعة، عضلاته المفتولة، قشابيته الدكناء توحي بأنّه ليس من هذه القرية وظهور رجل غريب في قريتنا شيء يقلقنا جميعاmonsieur.وقبل أن ينهي الرجل كلامه، ركله الضابط بركلة صارخًا:

أو تعتقد أنّنا سذج!وإذا كان من دوّار آخر لماذا استهدف القايد، ولمَ لم يستهدف شخصًا آخر؟أم أنّه من الذين يضربون خط الرمل. ابتلع الشيخ ريقه معتدلا في وقفته قائلا بعد أن أدار رقبته معذرة سيّدي الضابط لا أعرفه، ولم أصادفه في حياتي لحظة رغم أنّي أعيش قرب الشّعب والشّعب بقربيّ أنا، وأقولها والبينة على من ادّعى واليمين على من أنكر بأنّ ملامحه غريبةتمامًا لم أر هذا الوجه في حياتيّ، قريتي وأنا ملمّ بخرائبها.

-قال الضابط العسكري متوعدًا :موقفكم هذا يكلفكم أشياء كثيرة وستدفعون ثمنه غاليًا، لا مؤونة بعد الآن ولا دخول إلى القرية إلا ب-laissez passez هذا قرارنا وهذه إرادتنا، وسيفرضعليكم التفتيش متى اقتضى الأمر ولن يلج فيكم أحد la barrière

لن تجدوا ما تأكلون، أطفالكم سيمتون جنبكم وأنتم تنظرون إليهم كالبومة تمامًا لأنكم أعداء أنفسكم تخافون من الفلاقة كلكم فلاقة على فلسفة جدكم، ابتعدوا عن ملامحي وجهي، ثمّ التفت للشيخ قائلا في نبرة حادة:خذوه وكفنوه

وادفنوه في مقبرتكم، لكن الشيخ كان ذكيًّا في تعاطيه مع الحدث، ففهم مغزى حديثه وأنّه يريد إيقاعه في فخ، فردّ عليه الشيخ رافعًا صوته :

يمكنكم سيّدي رميه بعيدًا، هذا الشخص لا يستحق أن يغسل، فالشيخ معرف أنّ الشّهيد فوق هذه المراسيم، لا داعي أن تضيّع وقتك معه- capi ainemonثمّ وبحركة نصف دائرية انسحب الشيخ وهنا أومأ العسكري برأسه مردّدا:كلكم من زمرة واحدة، قطّاع طرق، كلكم فلاقة، لن يستثنى منكم أحد.

-حينئذٍ قالت الأم لابنها: أرأيت كيف يتصرف العقلاء من النّاس، أما أنت مازلت لا تقدر على هذا، اللّيل طويل والشتاء سيطول يا عبود.

-لم أفهم شيئًا.

- أنت لا تعي ما تقول وتلعب بالنار، والنار تحرق يا بني.

-أنا أيضا سألتحق بهم طال الزمن أو قصر. -تلتحق أو لا تلتحق هذا رأيك ولكنّ الاندفاع لا يفيدك ولن يجدي نفعا وأنّ »الرأي قبل الشجاعة شجعان هو الأوّل وهي المحل الثاني « ولا داعي أن تتسرع.

ومرّت الأيّام ثقيلة وثقيلة جدًّا، واحتار عبود في اتخاذ قرارًا حاسمًا وأضحى يعيش على قلق كبير، خاصة أنَّ نظرة أترابه إليه تغيّرت، لقد صاروا يتحفّظون منه، وكلّما رأوه في طريقهم غيّروا وجهتهم، وبدأت لقاءاته بهمتقل أو قل انعدمت و تفرّقوا عنه أيدي سبأ، فأعتقد أنّه محطّ أنظار، وأنه تحت الرقابة ولكن من قبل من هذا الذي جننه ولم يعد قادرًا على فك هذا اللغز وأدرك إدراك حكيم أن أمه على حق ومن يلعب بالنار فالنار تحرق، وأمام هذا المشهد لم يصل عبود إلى مخرج عدا أن يلتحق بالجبل، فالجبل هو الحل الأمثل ولا حل بعده، ولم يمض أسبوع حتى عزم عبود على الالتحاق بالفدائيين، لبس قشابيته

ثمّ أخذالطريق، انتابته هواجس كثيرة وهو يجتاز دروبًا وعرة معلّقة عبر وهاد، منعرجاتها قاتلة مميتة وبدا الأكسجين يقل مما أجبره على التوقف من حين لآخر، لتتنفس قليلا، ويلقي بنظره على القرية والقرية هادئة. إنّ أشياء تقفز لذاكرته تجعله يتراجع قليلا، ينظر في كلّ جهة، لا شيء هناك، لا أحد، عدا طيور تصدح فتعيد توازنه مع نفسه، العصافير التي تصدح تهز مشاعره والعصافير التي لا تصدح تهز مشاعره أيضا، فيعتقد أنها تعيش على وقع الترقب، هواجس تملأ رأسه الصغير، توقعات لم تخطر على ذاكرته من قبل ولم يفكر فيها ألبتة، وأخذ يسأل نفسه، ماذا لو أن العسكر رآه؟أو أنّ كمينًا نصب هنا عند هذا المنعرج أو قنبلة وضعت على شفة هذا المنحدر، وأيّ مسلك سيسلكه وهو لا يعرف خرائب المسالك، أحسّ أنَّ رجليه يوجعانه، توقّف عن المشيّ وراح ينظر يمنة ويسرة ثمّ ركن ليستريح قليلا تحت ظلّ شجرة بلوط، أسند ظهره إلى جدعها ثمّ مدّ قدميه، لقد أحسّ براحة وراح يفكر، وكاد النعاس يغلبه، وما إن مدّ يديه ليفرّك عينيه إذ بيد تربّت على كتفه، أدار رأسه، رأى رجلا ملامحه غريبة لم يره من قبل، يرتدي بزة رماديّة داكنة، على كتفه بندقية صيد لم تكن جديدة.

-قال الفدائي مخاطبًا الطفل :قف -ردّ الطفل :أنا منذ خلقت وأنا من الواقفين. -من ذا الذي جيء بك إلى هنا؟.

-قدماي!

-لا تكن أحمق!

-أنا لست ساذجًا.

-يبدو أنّك غريب عن المكان.

-أنت الغريب في عيناي!

-من تكون؟!

-لو لم أكن لما جئتكم.

-من تكون؟

-شخص يمثل المستقبل.

-نحن الحاضر والمستقبل.

-في اعتقادك!

-أنا شيء آخر.

-أنت لا تقوى حتى على المبيت في العراء.

-وأنت؟!

-أنا شجرة من أشجار هذا الوطن.

-وأنا شجرة صغيرة، والحياة أشجار!.

-يكفي تهبيل، أنت جاسوس، جئت لتنقل أخبارنا ليس إلا.

-أنا أنت ولولايّ لما كنت.

-كلامك خطر وأكبر منك.

وبينما هما في الأخذ والرّد إذ بقائدهم يخرج من جهة مقابلة وهنا صاح عبود: عميّ...تبسّم القائد وهو يقول مبتسمًا:لا تخف يا صاحبي ولا تقلق فالخطر كلّ الخطر حين لا نعترف، وحين نعترف تبدأ الحياة الحالمة، هذا الطفل فدائيّ صغير أنت لا تعرفه، سلني أنا أقول لك من يكون؟

- ولكن ما حاجته؟

-لا شيء وهو يرفع يد عبود فخرًا واعتزازًامخاطبًا رفيقه قائلا:أتذكر القمح و الشعير والحنطة التي كانت تصلنا يوم كنّا بأمس حاجة إلى قطعة كسرة ولو كانت يابسة، أنسيت هذا أم تناسيت ولكن مهما يكن هذه طبيعة الثورة، من لا يجوع لا يعرف معنى الوجع، ومن لا يبكي لا يعرف أنّ الدمعة تحرق والجاحد

للنعمة لا يعرف النّاس الذين يمدّونه بسنابل الحياة، أسمعت يا صاح!.كان في مقدوره أن لا يلبي الأمربحكم أنه ما زال صغيرًا ولا يتحمل عبئنا، ولا قانون يطبق عليه ولكنه أكثر مما تشكّ فيه أوليس من حقه هذا؟أو ليس له الحق أن يعيش طفولته، كان في مقدوره أن يتعلم حرفًا كبقية أترابه الذين هم على مقاعد الدراسة ورغم هذا لبى النداء وعن قناعة وامتثل للأمر، وأمثاله كثيرون ولا يمكن أن تقفز على هذه الحقيقة، الحقيقة مرّة يا صاح ولست وحدك من أخطأ الظن، هؤلاء شموعنا التي بفضلها نرى النور، إنهم نور على نور، تصوّر معي ثورة دون مشاركة أطفال الوطن فيها، أفي مقدورها أن تصمد؟.لا يمكن أن تنتصر وستجهض في مهدها، فالأطفال عيوننا التي نبصر بها ولولاهم لضاع من قدمينا الطريق، إنّهم يمثلون المستقبل ونحن الماضي ومنا يتعلمون والدنيا أخذ وعطاء هكذا الدنيا، إنّهم جهاز مخابرتي يصعب تفكيكه، جهاز داخل جهاز آخر لا تعرف من معك أو ضدّك إلا إذا تعاملت معه، لا تخف منه إطلاقًا، وتذكّر يا صاح أنَّ روما لم تبن من قبل بنّاء واحد، أو في يوم واحد، لا بد أن نعترف أن السّد تحكمه أحجار حجرة تشدّ حجرة أخرى، وإذا فلتت واحدة كان مصير السّد الانهيار، هكذا نحن، لن نفعل شيئًا إذا لم يتحرك الناس كلّهم، هي هكذا فلسفة الثورة قائمة على مشاركة كلّ عناصر الحياة فيها من كنّاس أرصفة إلى ملاغ أحذيّة إلى المزارع إلى العمّالة، إنّهم عناصر الحياة حلمهم الوحيد الأوحد أن تتحرّر أرض الجزائر، أرضنا جميعًا ويجلس أبناؤها على مقاعد الدراسة جنبًا إلى جنب، يتصافحون وينشدون كلّ صبيحة بلادي كم نحبّك، أما الأطفال فمن حقهم أن يلعبوا، ورغم هذا تجدهم أكثر من الكبار مساهمة، و أنت تعرف بأن العدو قد يفعل ما لم يخطر على قلب بشر، قد يقتلع جلدة رأسك وتبقى الثورة جسدًا تتفاعل أعضاؤه من أجل أن تستمر الحياة،

أو لديك اعتراض؟ كلا، ولكن هذا الطفل مازال صغيرًا لا يقدر على مواجهة التحديات.

-لا شيء يدعو للقلق، أنا أتكفل به.

-لكن معاملة الأطفال صعبة ولا يمكن تصديقهم.

-عبود شيء آخر.

-"وهل تصدق يا ابن الأرض صبيانا".

-أسمعت يا صاح إني أجزم أنّه..... -يفكر أفضل مني أهذا الذي تقصده!

-حاشا لله.ثمّ تبسّم القائد وهو يشدّ على يد عبود رافعًا إيّاها هاتفًا:

بكم نصنع الفرحة، ثمّ جلس قعودا وبدأ يرسم خطة غير واضحة المعالم، خطوط متداخلة أشكالها مبهمة.

- صاح عبود :ما هذا يا سيّدي؟

-لا تحشر أنفك في أشياء أكبر منك، ما زال أنفك لا يقوى على الاتساع ثمّ أردف القائد قائلا :الهجوم يحتمل أن يكون هذا.

-ردّ عبود لم أفهم شيئًا.

-هذا الأمر لايخصك.

-كمن عبود أنفاسه وراح يرنو إلى اللاشيء.واصل القائد كلامه مخاطبًا رفاقه وهو ينظر إلى الطفل نحن إذا قلنا شيئًا ننفذه، ولم يمض وقتٌ طويل حتى أمرهم قائدهم أن يستعدوا ويمشوا مشية الحظر، وقتها كان اللّيل يسدل ستائره والخوف ولى مهمازًا يهزّ الناس، طلقات رصاص تمزّق الأجواء، أخّذ الجنود أمكنتهم بعيدًا عن الأضواء، وراحوا يرقبون الدوّار في صمت دفين.

ردّ القائد:اتركوهم إلى غد ألا تعرفون ذلك؟لا أحد يملك الغد، قد تعلم ما

في اليوم، والأمس قبله، وقد تكون فيه شاهدًا أو مشهودًا ولكن الغد شيء آخر، لا أحد يملك الغد، لا الصبيّ ولا الفدائي ولا المسبل، الغد قفزة في الظلام أو ضربة حظ أو شيء يشبه الحلم.إنَّها سوق رائجة، سوقٌ يقصدها الباعة، يؤمها عساكر والمكان مناسبٌ لتنفيذ خطة هجومنا، إنّها سوق رائجة فعلا، السّوقُ العامرة فيها بركة عظيمة ؛عظمة حركتها والسّوق الفارغة لا خيرها فيها.

-قال عبود:أنا من يتولى إطلاق الرصاصة الأوّلى.

-القائد: إنّ العمل معنا يتطلب.....

-ماذا؟.

-ما فهمته.

-ما فهمتش!

-السرُّ في موضع السرِّ. هذا الكلام سمعته.

-من من؟!

-أمّي كانت تقول لي دائما أنت مازلت طيرًا لا يقوى على الطيران، والدنيا مقبرة الأسرار يا عبود يا بني.

ابتسم القائد معترفًا: نعم الحكمة حكمتها، أنت طفل بُورك فيك، عد إلى أمّك هي الآن تفتش عنك، أنت لا تعرف حرقة الأمّ، ما زلت طفلا غريرًا لا تقدر إحساسها، لزم عبود الصمت ولم يقل شيئًا، بينما واصل القائد حديثه يوم الخميس.. إنَّها سوق يقصدها النّاس من أولاد علال إلى أعالي أولاد زكري، أولاد مسعود، أولاد عبد الله، كلّهم ينصبون هنا، سوق رائجة، كل واحد وما يحمل في قفته، والقفة حينها عامرة، هذا يحمل دجاجة أو ديكًا، والأخر يجرّ نعجة أو معزاة أو عجلا أو بقرة وربّما أحدهم يحمل في قفته قنبلة ولمَ لا؟

ما المانع؟أصل الحياة التنوع، ثمّ تنهد:أما ذلك المعتوه الذي يدّعي الحكمة

و يصيح بأعلى صوته من حين لآخر بعد أن يخلط البرّ والشعير والحنطة خلطًا محكمًا متحديًّا الناس على أنّهم لا يستطيعون فرزها، سيعلم أننا قادرون على فرزها نحن نعرف خبايا وأبعاد خطابه، إنّ خطابه هذا ليس بريئًا، إنه يتكئ على أشياء خطيرة وخلفية خبيثة.إنَّ كلامه لموجع حقًّا، وكلما سمعته لا أعثر على جواب شافٍ، فأبقى مصدومًا، أنظر إليه ولكن لا شيء يخيفه أو يخوفه، وحالات يتردّد وقعها على خاطري مما يجعلني أعيش على تداعيات، ما معنى هذا اللغز؟ ماذا يريد من ورائه؟ هل أنّ عدوّنا أقوى منا أو يزيد، أم أنّ قوتنا وقدرتنا لا تساوي أو توازي قوتهم، ما معنى ذلك في رأي النّاس؟هل يقصد أنَّهم دولة بإدارتها وترسانة جيشها وآليات حربها ونحن لا شيء، شعب أعزل لا عُدة ولا عَتاد، كيف نقدر على مواجهتها أليس هذا الذي يريده هذا الأحمق؟

-قال العيّاشي بعد أن تنحنح ضاحكًا:هو لا يقصد هذا ولا ذاك، ربّما يريد أن يوضّح لنا أنّ هناك من يتعامل معنا ويقف ضدنا أو يعمل معهم ويساند موقفنا وفي هذه الحالة لا نتمكّن من معرفة الصديق من العدوّ، فالثقة غير كافية، هذا ما يريده ليس إلا.

-هو يعرف هذا ولكنه يخبئ عنا أشياء كثيرة، أو قد يعتقد أنّنا سنهزم في نهاية الأمر وفي هذه الحالة لابد أن نذهب معه بعيدًا وإذا اقتضى الأمر توريطه حتى يكفّ عن هذه الحماقة، أو أخذه إلى أقرب مركز ليعرف قدر نفسه ويحترم عمره، أو ربطه إلى جذع شجرة بلوط ليعرفكم يزن في عنق الحمامة وأكثر من هذا نمارس عليه نوعًا من التعزير يفيده أكثر ليعرف متى يخرج لسانه وماذا يقول، أو نستدعيه و إن لم يمتثل للأمر نكلف شخصًا يأتي به، ثمّ نأمر ثلاثة جنود بإعداد أدوات الحفر من فأس إلى غير ذلك ليحفر قبره ثمّ نلقي به حيًّا ونهبب عله ترابا، أنّي أرى هذه الطريقة لا تكلفنا عناء كبيرًا ولكنّها تحدث خوفًا

وهلعًا في نفسيته فتدفعه للاعتراف من دون أن يشعر، أو يصاب بصدمة بعدها بدهشة فيستفيق من غفوته الوقحة و يكفّ عن هذه الحماقات. نطق آخر: ربّما يعمل جاسوسًا يظهر ما لا يخفيه، إنَّ أمر هذا الرجل لغريب ولابد من اتخاذ موقف حتى يكفّ عن مثل هذه الأوهام، ربّما الوهم خرّب ذاكرته، الوهم يجعل المرء يعيش شخصيّة أخرى يتبنى شيئًا وهو بريء منه. صاح نوار لا هذا ولا ذاك الرجل يتهبل، وهذا ما كان وما يمارسه العدوّ ليس بالضرورة ممارسته، وحده الكلب يعرف الميت من الذي يتماوت، دعوه وحاله وإنّ غدًا لناظره لقريب وسيرى من ذا الذي يتولى فرزها.

–ولكن هناك من قال بعد أن حرّك سكره داخل فنجان قهوته ربّما يكون أحد رجالات المخابرات ضيّع نفسه فأصيب بالخبل. –منهم من قال بعد أن اعتدل في جلسته مردّدًا ضاحكًا مستهترًا ربّما هو شاعر جاء قبل القصائد و المطر ولمَ لا! فلم يصمد فحدث له ما حدث لأوراق الأشجار في موسم الخريف فادّعى النبوة، وتاه في الأسواق وعلى هذا دعوه يمارس غوايته. –منهم من تجرّأ مدّعيًا هذا جندي ليس إلا أن ضيّع سلاحه، ففرّ هاربًا من ساحة القتل والتقتيل والاقتتال، ولا داعي أن نفتش عن سرِّ مجيئه. بعد غد يقتنع أنّنا على ذلك لقادرون، بعد غد، السّاعة فجرًا نكون هناك مأوايّ شجرة الميس التي نخرتها النّار وبقيت خاويّة، إنّها شجرة ذاهبة في الطول، شجرة نبتت عند مدخل بوابة السّوق على الجهة اليمنى منها من تلقاء نفسها لا أحد غرسها، وجودها هناك ترجمة لوجودنا، إنّها شجرة تكفي لتنفيذ عمليتي الفدائيّة، سأتوغل في عمقها، هي الشجرة الوحيدة التي بقيت صامدة واقفة في وجه الريح، الشجرة التي تُعطي دون مقابل، إنّها شجرة ضخمة وجدت منذ زمن بعيد وليس بمستبعد أنها من زمن الأتراك، نبتت عند مدخل السوق وهي تغطي مساحة كبيرة

بأغصانها المتداخلة، هذه الشجرة ستكون إن شاء الله شاهدة على حدثنا لتصبح مستقبلا معلمًا وقلعة من قلاع ثورتنا المباركة، وأنتم يا الخاوة كلّ واحد في جهة معينة ميلود والعيّاشي عند الباب الخلفي للسوق، أحمد وعلي بمحاذاة الجدار، محمد والطاهر من هناك علينا أن نغطي الجهات الأربعة، لن يفلتوا من كيدنا، لسنا جبناء لدرجة أننا نترك السّاحة فارغة، المساحات الفارغة يحتلها الآخر، من ترك المكان فارغًا يحتله الآخر هكذا طبيعة الحياة الدنيا، والحياة صراع، كلّ واحد في موقعه، فمجرد حركة بسيطة تكون وبالا علينا، إيّاكم.. إيّاكم والتَّخاذل، النصر أو الاستشهاد ثمّ التفت القائد يمينا رأى عبود مازال يراود مكانه، تبسّم في وجهه مداعبًا إيّاه، وهو يربت على كتفه مردّدًا البركة فيكم والجزائر يحررها أبناؤها اليوم أو غدا والثورة لم تنته بعد، هذه البداية والخير باقٍ ما دام على وجه الأرض بشر، لا تقلق يا عبود، ففرصتك آتية لا ريب فيها لا تقلق مازال الطريق طويلا وشاقًّا وليس من السّهل أن تقف في وجه العاصفة وأنت طير لم ينم زغبك بعد، هذا ما قالته أمّك أنا لم أقل شيئا.

-عد يا عبود إلى أمّك، أمّك في انتظارك.

-عد يا عبود إلى كوخك إلى فراشك.

-عد يا عبود قبل أن يسدل الليل ستائره.

-عد يا عبود ليل الثورة لمن لم يكفه نهاره.

-عد يا عبود عودتك تفيدنا أكثر من بقاءك معنا.

-عد يا عبود ثقتي فيك كبيرة.

-عد يا عبود نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت. وإن لم ترني بعد غد لا تبك عليّ وإنما واصل مسيرتك، فإنّ "الأيّام تعطي حينما لا شيء يجدي"، فنحن خلقنا لنقتل أو نستشهد.

-عد يا عبود على المحبّة نلتقي. -عد لم يبق هناك وقت وإلا.

-ماذا؟!

-لغة أخرى ستسمعها بعد قليل.

-ما فهمتش.

-لغة الرصاص والرصاص لا عاطفة معه، ميلود شابٌّ فارٌّ من التجنيد وأنت لا قضية لك مع العسكر.

-أنا قضيتي مع فرنسا بذاتها.

-قضيتنا جميعا.

- معنى هذا.

- ما فهمته أو أكثر.

- لملم عبود ما تبقى من حلمه ثم عاد أدراجه من حيث أتى..

وبزغت شمس الخميس، كان يومًا مشهودًا، الحرُّ من استشهد، والعبدُ من خبَّأ رأسه، كلّ واحد كَمَن في موضعه.

-قال ميلود مخاطبًا العيّاشي :من هنا لا من هنا وبدأ هاجس المعركة يلعب في مخيلتهما ولكن مجاهد آخر هتف في أذنه حذار من أيّة مغامرة، الحيطة والحذر والأجدر أنّ نتقيد بتعليمات القائد، فرصة كبيرة لا تعوض سنطعمهم رصاصات قاتلات ليعرفوا حدودهم، هذه الأرض، ولدت رجالا، وليسوا أكثر منا شجاعة، سيعرف بعدها المعّمرون بأن هناك من يكافح من أجل حرية الإنسان، لا معنى للحياة وأنت في مزارع الكولون تقتات من روث حيواناتهم، سيعرفون بأن ما ضاع شيء وراءه صاحبه، الحيطة والحذر، فقط كونوا أكثر يقظة، الفرصة فرصتنا لا تفوتوها تذهب دون أن نوجه لهم ضربة تكون شاهدة على وجودنا.

-هذا رأيك

-يبدو أنّك فهمتني خطأ.

-معنى هذا!

-ما فهمتش!

-زغردة الرّصاص.

-وصل خطابك.

-لا تقلق بعد لحظات وسترى ماذا يحدث.

-ما يحدث لن يكون إلا من طلقاتي.-طلقاتنا كلّنا.

- وهنا نطق ثالثهم ولكن.

-ماذا؟

-وأنت!.

-نحن شيء آخر.

-لا فرق في نظر الثورة بين عسكريّ ومدنيّ.

-لا هناك فرق كبير.

-في تصورّك.

-لولا المدنيّ لتمّ القبض على العسكريّ.

-ولولا العسكريّ لشاب الغراب.

-ماذا تقصد؟

-المعمّرون.

كلاهما يا صاحبي يسيران في نفس الطريق، هذا يكمّل الآخر وهذا لا معنى له في نظر الثورة، ولم يمض وقت عن كلامهما حتى جاءت اللّحظة الحاسمة وكما أريد لها أن تكون، صبيحة خميس، سوق وطنية يؤموها النّاس من الخروب

إلى الميلية إلى المداشر المجاورة، سوق عامرة فعلا، لقد أصرّ الفدائيون على توجيه ضربة للعدوّ، ضربة قاضيّة، حتى يعرف حدوده ومن يكون هذا الذي جاء ليمرّغ أناسا لا ذنب لهم عدا تعلّقهم بأرض أجدادهم، ضربة ستكون اعترافًا بوجودهم، ونقطة تحوّل في مسار تاريخهم.صاح فدائيّ آخر أنا مأواي شجرة الميس، إنّها شجرة ذاهبة في الطول وقد نخرتها النّار من الداخل فلابد أن تكون خير شاهد، وحدها من بقيت صامدة لم تتزعزع، اليوم خميس يوم مبارك، سوق مبارك والحرّ من استشهد، والعبد من خبّأ رأسه، فالنار خطاب لكل طاغ أثيم. وحان وقت المعركة وكما أريد لها أن تكون، حركة مباركة والسوق تعمر على المليح، وتتفرّق على الفايح، باعة ومشترون وكلّ واحد يحمل في يده قفته والقفة حينها عامرة، عساكر يتقدمون، يتهامسون، يتضاحكون وما إن وطأت أقدامهم بوابة السّوق حتى جاءت كلمة السرّ :الله أكبر تحيا الجزائر ثمّ أعقبتها طلقات رشاش، واحد، اثنان، ثلاثة وهناك من قال أربعة، عساكر عائمون في دمائهم، واشتد وقع المعركة، وعلت صفارات الإنذار، جنود يجرون، يركضون مقتحمين السّوق، إنّ الإنسان لينسى، نفر من الفدائيين ضد عسكر مدجج بأسلحة، والثكنة ليست ببعيدة وانقلبت السوق رأسًا على عقب، عساكر قادمون، إمدادات أخرى ستصل بعد حين، طلقات رشاش تمزّق الأجواء والنّاس منبطحون، قنابل تنفجر هنا وهناك، هناك من قال كمين ومنهم من جزم أنّه أكثر من كمين واحد، وأختلط الحبل بالنابل، صيحات تتعالى مدويّة، قوات تدخل تحاصر المكان، تطوّقه، طلقات ناريّة في كلّ الاتجاهات، فرّ من فرّ وقتل من قتل وجرح من جرح، سيارات إسعاف تنقل الجرحى، والمعركة يشتد وقعها، فدائي يجري وراء عسكري يريد أخذ سلاحه، "يموت من لا يستطيع الركض في الطرقات"، إنّ المشهد يؤرخ لحدث عظيم عظمة فاعليه فعلا،

خلت السوق إلا من صوت معتوه اختبأ وراء دعامة، قال عسكري مخاطبًا إيّاه بطاقتك..أجابه وبصوت مبحوح:بطاقاتكم دفعناها و نحن في انتظار صدور بطاقة هويتنا، فأرداه قتيلا، كلّكم فلاقة على فلسفة جدّكم وتأزمت الأمور وتمّ غلق منافذ القرية وبدأ الانتقام يفعل فعلته الوقحة، قتل عشوائيّ، حرق أكواخ لأناس عزل، ولم ينج من شرّهم حتى القصر من أبناء القرية، لقد جيء بهم إلى مركز الثكنة، والثكنة ليست ببعيدة، ثكنة مربعة على مساحة كبيرة، شكلها شكل متوازي أضلاع، لقد جيء بهم غصبًا عنهم وتمّ استنطاقهم بوحشيّة، هناك من سجن ومنهم من أطلق سراحه بعد أن أشبعوه ضربا، حينئذً ولى الخوف مهمازا يهزّ قلوب النّاس، والثكنة ليست ببعيدة، صراخات تسمع تهزّ النّفس على غير عادتها والخوف آلة مدمّرة، قلوب النّاس خائفة واللّيل يسدل ستائره، ليل بهيم حقا لم يعد المرء يسمع إلا نباح كلاب مختلطة، أبواب تهتز، صراخ أطفال، رجال يخرجون على وجوههم، منهم من أُخذ دون رجعة، ومنهم من زج به في زنزانة الموت المؤجل، ، منهم من مرغوه في وحل الطين ومنهم من جرّوه من عنقه بالحبل، منهم من أدخلوا رأسه في المرجل مشبّعًا بالكهرباء، منهم من دُقت مسامير على أصابعه، بقع قانية، دم أحمر على جدران السجن، "إنّ الإنسان لينسى '

واللوحة لم تكتمل بعد هناك لون ينقصها والليلة خرساء، أخرست ألسنة الناس وألجمتنها ولم تعد تسمع إلا نباح كلاب تأتيك وانية مختلطة بعواء الذئاب، خاف النّاس وبردت الدنيا في قلوبهم، وانطفأت الأنوار في زجاجات الزيت المعلّقة، والمخبّأة منها تحت الإناء، وانكمش كلّ واحد في فراشه خائفًا من جراء مداهمات العسكر واعتداءاته الليليّة وما يمارسونه من عنف وتعنيف واغتصاب في حق البنات والنساء على السّواء وقدّام مرأى أهلهم، كلّ واحد

ينتظر دوره، شيء يندى له الجبين فعلا، صار المرء محل استهتار، هذا ما حدث من عسكري من اللفيف الأجنبي من السنغال، مرتزقة جيء بهم، جندي ذاهب في الطول، أسود البشرة، كلّ ما فيه أبيض، بياض أسنانه، على رأسه بيري أحمرُ وقد شدّه إلى الجهة اليمنى، وفي جيب بدلته قنينة ويسكي، جاء بدجاجة ميتة وهو في حالة سكر حدّ الثمالة نشوان يتمايل لا يقدر حتى على التحكم في مشيته وهو يغني مناديًا: فاطمة، فاطمة أرجوك إن تقيّدها لي، أخاف أن تفلت من قبضتي وهي غنيمتي الوحيدة التي لا أعتقد أن أعود بها إلى أمّي حيًّا، أميّ التي أبكتني حين تناءى إلى مسمعها استدعائي للتجنيد، لقد بكت بكاء امرأة مقطوعة من شجرة ولكنها لم تستطع أن تفعل أمام هذه المهمة شيئًا.

ضحكت فاطمة مستهزئة وهي تنظر إليه بحيرة مستغربة من سؤاله الأحمق أيعقل أن تقيد شيئًا ميتًا وغلبها الضحك وفعلا- شرّ البلية ما يضحك- ولكن ضحكتها جاءت متقطعة تخللنها بحة أضفت عليها سحرًا وإيقاعًا، إنّها فاطمة بنت أحميدة الشّاوي، فاطمة وعليها كلام، جمال فاتن، بشرة سمراء، بضّة وشعر سلس حريري، بادلته التحيّة خوفًا، فأعتقد سذاجة أنّها أعجبت به، أو تريد شيئًا آخر، فراح يقترب منها ويدنو شيئًا فشيئًا، ولكن المرأة بقيت صامدة كالطود، متحديّة الموقف ولمّا عرفت انّه يتحرّش بها دلفت إلى منجل كانت قد علّقته خلف باب كوخها، وأخذت تلوّح به ثم بدأت تصرخ منادية ضابطه

-قال العسكريvotre papier fatma et doucement.ثمّ خرج وهو يبول إنّه عسكري من الحلف الأطلسي وأمثاله كثيرون، جيء بهم ليموتوا بعيدًا عن أهلهم وأرضهم، جيء بهم غصبًا عنهم وهم غير مقتنعين بهذه الحرب ألبتة، جيء بهم لدفنهم دفنة الغرباء، حرب عنيفة وقذرة فعلا، هكذا قال جندي مخاطبا جنديًّا آخر من جنسيته وهو يتجرع جرعة من الجعة

ماسحًا شفته السفلى بكمّ بدلته، لا تتعب نفسك يا صاح أنت خاسر مهما ربحنا المعركة، نحن أفارقة ولو كنّا في جلود فرنسيّة، وماذا تعطينا فرنسا لو ربحت المعركة؟وما هو نصيبنا منها؟مرتزقة نحن، وقتلة، هذه هي حرفتنا ولا حرفة لنا، مهمتنا قتل الآخرين وجرائم الحرب لا تنتهي مادام فوق الأرض بشر، خير وشر يتصارعان و الحياة صراع ولا شيء آخر على هذا؛ اشرب حتى ترى الديك حمارًا، اشرب على نخب الهزيمة، فنحن يا صاح لا ناقة لنا ولا جمل في هذه المعركة، فالظروف هي من أملت علينا معطيات والظّروف صخب، اشرب ولا تأمل مادام الموت ينتظرنا، فالثّورة فرصة لقضاء حاجة أو للفوز بمداعبة امرأة على الأقل أو للمتاجرة بالمخدرات والأسلحة فرصة لمن لا فرصة ولا مبدأ له في الحياة الدنيا، لا قيم ولا مبادئ تحكم الحرب، فلتحترق فرنسا برمّتها، الأهم أنّنا نقبض أجورنا، المال لا رائحة له، ولا يهمّ من أين يأتي؟أنا جندي هنا أو هناك في بقاع المعمورة، أنا جندي عابر حدود، لا وطن لي ولا أرض ولا انتماء، لا دار ولا استقرار وأكثر من هذا وذاك داري على ظهري وأجنحتي هذه البواخر التي تمخر عباب البحر، حقيبتي جاهزة وسلاحي على كتفي وعليه نُقش رقمي، في يدي قنبلة، ومهمتي تنفيذ ما يُملى عليّ وما يطلب، جندي مأمور أنا، مفرغ من أدنى إحساس إنسانيّ، ولا معنى لا لليل أو للنهار سواء أكان الجو صحوا أو ممطرًا، حارًا أو باردًا، أنا لا بطاقة هويّة لي، هويتي بذلتي، سلاحيّ الذي هو في يدي وإن اختفيت عن الثكنة أو تأخرت أو فررت من ساحة معركة ما، رقم سلاحيّ هويتيّ، هذه هي حياتي، حياتي مجرد رقم أضيف إلى جملة أرقام، فما معنى هذه الحياة وما قيمة هذا الوجود؟.اشرب الآن هنا وغدا إن كان في العمر بقيّة هنا أو في جهة أخرى أو في بلد آخر، طيور نحن والطيور يا صاح لها أعشاشٌ ونحن لا عشَّ لنا من محطة إلى سكة من مرفأ

إلى مطار، غربة واغتراب أزلي أو لم نكن بالأمس فقط بالهند الصينيّة واليوم جيء بنا إلى هنا، أو ليست الطيور أفضل منا على الأقل لها أوكارها تحسّ فيها بدفء المكان، أنا لا مكان لي لا وطن، يكفيني كأس خمر وامرأة ووتر، وحدها السنونوة تبني عشّها من وحل الطين وريش الحمام، وحدها الطيور يا صاح لا تنسى ماضيها، أما نحن لا ماض لنا فكيف يكون لنا حاضر؟، حاضرنا هي هذه اللّحظات التي نعيشها بوجع وخوف وألم وتقرب مستمر نعيش على حلم لنستيقظ على فاجعة وطن، ماذا ربحنا في حياتنا إلا صور القتلى والتخريب خرّبت ذاكرتنا ونحن صغار، ما ألذ العيش يا صاح لو كان قلب الإنسان حجرًا.

اشرب يا صاح ولا تسأل عن الذين قتلوا، كلنا سنقتل بموس بارد أو رصاصة حامية، أو يهزّنا انفجار عند منعطف جبل، أو منحدر، وقد نموت غرباء وهنا قد تنقر الطيور رِؤوسنا، أو يرمى بنا إلى منحدر فيجرفنا السّيل، لن يبكي علينا أحد، غرباء نحنا في أرض الآخرين، وقد ندفن بعيدا عن أهلنا.

اشرب على نخب النصر أو الهزيمة كلاهما سيان لماذا؟لأنّنا في نهاية المطاف نستفيق على فاجعة ذاتنا وحدها الذات تسمعك ما لم يُسمع وتحسّ بأشياء تصعد وتهبط مشكلة إيقاعات موسيقية تهزّك على غير وهلة تعيد توازنك مع ذاتك. اشرب يا صاح ولا تسأل عن الذين رحلوا فحياتنا ترقب وانتظار، وما من لحظة تمرّ علينا إلا ونموت فيها ونحيا.هواجس تملأ رؤوسنا الصغيرة ولا حظّ لنا، حظّنا دُفن في حلق الطيور يا صاح، البارحة فقط كنّا في ديان بيان فو، معركة لها نكهة أخرى، طعمها طعم ليمون، جنس أصفر، قامتهم واحدة ولونهم واحد وشعرهم واحد، لا تفرّق بين جنديّ وآخر، وما تعتقد أنك قتلته البارحة هو الوجه نفسه الواقف قدّامك مسدّدًا طلقته وخضنا معركة

شرسة وعدنا على أعقابنا نجرّ أذيال الخيبة والخسران، خسرنا المعركة ولم نخسر أنفسنا، لكن هنا إن خسرنا المعركة يا صاح فقد خسرنا ذاتنا، نحن أفارقة قبل كلّ شيء والجزائر بلد أفريقي، فلا تذهب بعيدًا ولا تحمل همًّا، فينا ما يكفينا، فينا أنين الجرحى ووجع الذكرى. ذكريات طغت علينا بفيضها، حرقة أمهاتنا ونحن نشحن كالبضائع تمامًا، هذه الحرقة لا تختلف عن حرقة الأخريات وهن يروّن فلذات أكبادهن نعاجًا مذبوحة ومرمية على قارعة الطريق أو في المزارع أو في المزبلة ولمَ لا؟اشرب على نخب الهزيمة ولا تبك عن شيء انزلق من بين فروج أصابعك كما ينزلق الماء بين مفاصل صخر، فأنت جندي ولست بحاجة إلى رفيق، رفيقك سلاحك، ولا داعي أن تقلق أو أن تحسب حسابات أخرى لماذا؟ بكل بساطة سنهزم طال الزمن أو قصر، هذه الأرض ليست لنا ولن تكون لفرنسا، من جيء بها إلى هنا وماذا تريد من شعب أعزل لا يملك حتى حليب أطفاله وعلى هذا كن ذكيًّا ولا تكن جنديًّا اندفاعيا متهورًا، فالمعركة لها استراتيجيتها، والاستراتيجية خطة قوامها مجموعة أعمال لتحقيق هدف واحد، قد نربح معركة، أو نرهب شعبًا، لكنك لن تربح قلوب النّاس، لذا لا يهمك ما يجري من تمشيط أو حرق أو تدمير، فإنّ هذا لا يعنينا مادمنا مرتزقة، نرتزق على حساب جماجم شعب، هذه المعركة قذرة بمعنى الكلمة وأنت جندي مأمور أفعل ما تؤمر به، كن جنديًّا مطيعًا قبل أن ترمى بنار صديقة أو تحال على محكمة عسكرية بتهمة الخيانة، وحدها الخيانة تقتل صاحبها وترميه في قاع التيه والنّسيان.لا تكن أحمق، فالحماقة لا دواء لها، وهنا صاح جنديّ آخر وقد بدأت الخمر تفعل فعلتها وقد رأى امرأة تمرُّ قدّامه سائلا أهذه المرأة ذكر أم أنثى؟-قهقه العسكر. -ردّ جنديّ آخر:وأنت ما حشرك في هذا؟أقتل كلّ من يتحرك أمامك، نحن لا نحسن إلا القتل ولا تأخذك بهم رأفة، كلهم

قطاع طرق، فلاقة، فلاق بن فلاق على فلسفة جدّه، أحرق كل ما تجده أمامك قبل أن تُحرق فأنت قاتل أو مقتول اليوم أو غدا وقد لا نعود، نحن يا صاح من مطار إلى مطار أو من باخرة إلى أخرى نشحن كالبضائع لا شيء آخر، مصيرنا الموت المؤجل ولسنا أفضل من الذين مرّوا من قبلنا، الذين رفضوا الامتثال والانصياع لأمر الجندية، أو فرّوا من ساحة المعركة، هؤلاء تمّ رميهم بالرصاص، غرباء نحن عن الأهل والأحبّة، محكمتنا عسكرية والمحكمة العسكرية لا عاطفة تنفع معها، ولا لغة تجدي نفعًا وعلى هذا كن ذكيًّا ولا تدخل معركة حتى ترى فيها مخرجًا، لا تكن أحمق. واصل مهمتك بحذر ولا تتسرع، فأيّ خطأ ترتكبه تكون ضحيته، واصل تفتيشك كما أُمرت، فإنّه لم يبقَ لنا إلا كوخ واحد وننهي العمليّة بسلام، حينها كانت السّاعة تشير إلى العاشرة ليلا حتى تناءى إلى مسمع أم عبود طرق على الباب، خاف أطفالها وشرعوا يبكون بكاء تنشق له الصدور، صعد قلب فاطمة في صدرها وازداد خفقانا، ومالت برأسها متكئة على جدار كوخها، مرت في مخيلتها قصة زوجة فدائي ألقي عليها القبض، لأنّ زوجها أبى أنّ يشيب الفدائيين، مرّت بذاكرتها صورة اغتصابها وكيف مرَّ عليها العسكر وهي طريحة فريسة لا أقل ولا أكثر، ورغم هذا لم تش بكلمة واحدة بقيت وفيّة كزوجها الذي تعرض لتعذيب همجي و لم يتزعزع وأمام هذا المشهد وعنفوانه همس جنديّ في أذن ضابطه:ماذا لو جئنا بزوجته؟.

-قال الضابط :فكرة ذكية تشكر.

- ابنته أفضل.

-لا اعتقد.

-لماذا؟

-من تقاسيم وجهه يبدو انّه حديث الزواج.

-لا بأس

-زوجته-

أمرك سيّدي ولكن

-ماذا؟

-تذكرت فاطمة هذا، تذكرت زوجته رقية، امرأة فوق العادة، امرأة لم يتجاوز عمرها العشرين سنة، لقد عبثوا بكرامتها أيّم عبث وأمام أنظار طفلها بعد أن جرّدوها من ملابسها، كل هذا من أجل أن ينهار زوجها عصبيًّا وتتحطم معنوياته النفسيّة.صاح زوجها:مجرمون، قتلة، وهنا رفع عسكريّ سلاحه وضربه بعقب بندقته فأسقطه أرضا تأوهت زوجته وبكى طفله بعدها أمر قائد فرقتهم بسحبه على وجهه خارج الدار ومنذ ذلك توارى واحتجب.

-هناك من قال: إنّه نفذ في حقّه الإعدام. -هناك من قال :لم يكن وحده لقد سمعنا وابل من الرّصاص فجرا بعيدا نوعا ما، تذكرت فاطمة هذا وأشياء أخرى، خافت وهي ترى باب كوخها الصغير يدفع بوحشيّة شاهرين رشاشاتهم في وجهها :-أين الفلاقـة؟

-لا أعرفهم monsieur

-نطحها بضربة رأسية.

-صاحت وتأوهت.

-تعشوا البارحة هنا يا فاطمة.

-عمرهم وإلى الأبد..

-كلّكم من زمرة واحدة.

-أبدا.

-أو تعتقدين أنهم جاؤوا من بعيد.

-ومن يدري؟ -ركلها ركلة.بكت وبكى أبناؤها معها، وقفوا مفجوعين، بينما صمد عبود وغلى دمه وانتابه قلق مريع هزَّ ركائزه.غمغم عبود بكلمات قائلا:اللّيلة ليس غدا أو بعد غد، لن يرى وجهي إلا شهيدًا، وعزم على الالتحاق برفاقه وأخذ يبني ويهدّم، حسب حسابات ولكنه لم يعثر على شيء، الليلة ليس غد أو بعده سأكون هناك وراح يشير بأصبعه تجاه الجبل.. هذا قراري، وهذه إرادتي، وبزغ فجر الصباح وانفلق نوره، دسَّ عبود في جيبه موسه بعد أن حدّه واتجه رأسًا صوب القرية وقف متفحصًا عيون الناس والناس ينظرون إليه وكأنّ الطير على رأسه حطّت، لم تعجبهم وقفته، حدسهم يقول إنّ شيئًا ما سيقع لا محالة، اليوم سوق القرية، سوق أسبوعيّة يقصدها سكان المناطق المجاورة لقضاء حاجاتهم، فالعدوّ فرض عليهم حصارًا، ومنعهم من دخول القرية إلا مرّة في الأسبوع، ولا يحق لأحد أن يدخل القرية إلا إذا كان من السّكان الأصليين أو من أصحاب أملاك أو من المزارعين، أو لديه بطاقة الناخب.

اليوم خميس، السّاعة السّابعة صباحا، الشّمس ترسل أشعتها، إنّ دفئًا يملأ أجساد النّاس يبعث فيهم نشاطًا وحيويّة، حركة دائبة ميّزت السّوق، عساكر مجيئًا، ورواحًا، والذئب يأكل من الشّاة القاصيّة، حينها تأخر عسكريّ وتخلف عن زمرته، أخذ يرقبه عن كثب وهو يمدّ يده مخرجًا نقودًا قصد شراء علبة سجائر وما إن رفع رأسه مديرًا رقبته باحثًا عن رفاقه حتى أخرج عبود موسه فذبحه واقفًا، سادت المكان جلبة هناك من يهرول وهناك من يفتش عن حاجته، ومنهم من فرَّ هاربًا، فرَّ من فرّ، وفرّ عبود وسطهم، وقتها استفاق العسكر من غفوتهم وعادوا راكضين، طلقات رشاش مزقت الأجواء والنّاس يركضون في

كلّ جهة، وصلت سيارة جيب، علا صوتها، اقترب العساكر وجدوا رفيقهم عائمًا في دمه، عمَّ المكان هرج وراحوا يطوّقون السوق، سدّوا منافذه، بطاقتكم، الكلّ في مكانه، لا أحد يتحرك، ساد المكان صمت مكدود ارتسم على ملامح الناس، منبطحًا خذ..هكذا قال عسكري.

-هناك من ركلوه و منهم من أشبعوه ضربًا. -قال ضابط عسكري مخاطبًا الباعة أتعرفونه...؟!

-لم نره... -العالم شريك في الجريمة،

-لا يا سيّدي..

أو ليس منكم، أو أحد أبنائكم؟ -نحن لم ننتبه.

-أنتم معه.

non monsieur-

-غطّيتم عنه.

non-

-كلّكم قطّاع طرق..فلاقـة.

-سكت النّاس، وتمّ تفتيشهم، منهم من أطلق سراحه ومنهم من اعتقل، أخذوا دون رجعة، والثكنة ليست ببعيدة عن السوق كثيرًا، صرخات تُسمع تقشعرّ لها الأبدان، لكن لا قوة توقف ممارستهم الوحشية، تعذيب، قتل، تقتيل، إبادة جماعية، دفنة ليلية خفيّة، خبيثة، خبث جرائمهم، وآلة الحفر معدّة خصيصًا لهذا العمل الإجرامي، وكلّما جنّ الليل يخرجون الذين تمّ القبض عليهم في النّهار قصد إعدامهم ورميهم في دهليز ثم يهيبون عليهم ترابًا، والحفرة تزداد هوة واتساعًا، رجال ينفذ في حقّهم الإعدام ظلمًا وزورا، والليل بهيم يسرّبل القرية، يضفي عليها جوًّا جنائزيًّا رهيبًا، وقتها كان عبود قد التحق

بالجبل.

– قالت امرأة محدّثة جارتها، أسمعت؟

– كلا.

–عبود..

–استشهد..

–لا..

–وعلت تقاسيم وجهها فرحة ملائكيّة.

–الجبل!.

– ما به؟

–إنّ غدا لناظره لقريب.

–لم أفهم.

–الرّاية!.

–ما لونها؟

–حمراء، بيضاء، خضراء.

–أنت بلهاء.

–منذ متى كانت دولة حتى تكون لنا راية.

–ستكون..والله يرحم الشهداء.

–لم أفهم.

–ستفهمين..

–كلّ شيء في وقته.

–دنيا ومن يدري.

–صرت حكيمة.

-يؤتي الحكمة لمن يشاء.

-الحيطة والحذر.

-ممن؟

-من نفسك ليس إلا..

-كلما سقط شهيد حمل الرايّة فدائي آخر..

-ما يضرّك يضرّ الآخر و إلا..

-ماذا؟!

-تهلكين أسرته وتفرقينها أيدي سبأ.

-معاذ الله..

-لست حمقاء إلى هذه الدرجة..

-عبود رجل لا كلّ الرجال.

-من يكون هذا من خلق الله؟.

-فدائيّ صغير.

-ولكن!

-ماذا؟

-هويته!

-راعي بقر، أليس كذلك؟.

-بلى ولكن!

-ماذا؟

-من الوطنيين الأحرار.

-أتعرفينه؟!.

-أي نعم.

-منذ متى؟

-منذ وقت مضى.

-غريب أمرك!

-الغريب هو الأليف.

-ما فهمتش!

-لقد وعدني.

-بمَ؟!

-أن نصير جسدًا واحدًا.

-منذ متى؟.

-منذ خرجتي الأخيرة إلى النبع.

-النبع!.

-أي والله..

-أشياء لا تقال..سرٌّ يحفظ.

-أي سرٍّ؟.

-أنا من أعرفه.

-أو تلتقين به؟!.

-الحذر مطلوب.

-لا تخافي، واعلمي أنّه هو من نفذ هذه العملية الفدائية.

-عن أيّة عملية تتحدثين.

-مقتل العسكري.

-أهو من...؟

-نعم.

-من لا يدافع عن حقّه لا يسترده.

-هذا الحدث هزّ القرية وأربك العسكر وحيّرهم في مضجعهم.

-و لكن كيف يجرؤ على تنفيذ عملية فدائية كهذه.

-لأنه قدّها.

-شيء رهيب.

-ولكن من أيّ منفذ دخل القرية.

-إذا أردنا شيئا نحققه.

-أولم يتم تفتيشه؟.

-هذا الذي دوخني؟.

- وهل التحق ب..... -نعم التحق بإخوانه الأحرار، عبود رجل، أحبّ وطنه منذ نعومة أظافره شعلة تتقد.نار ودخان، نار أتت على وطن برمته، لم يمنع من نارها حتى الرضع والقصر والعجز، وطنيٌّ أحبّ وطنه حدّ النخاع، لا يخشى العسكر ولا يعرف الخوف قلبه وسرّ قوته إيمانه بأرض وطنه، في الوقت نفسه تجد أناسا يتعاونون مع العسكر ويمدّونه بمعلومات عن كل شهم أصيل، يترصدون خطوات الأحرار، نصبوا أنفسهم أوصياء على أبناء هذا الوطن، صاروا ظلهم، وهنا قاطعتها متحديّة إيّاها قائلة في نبرة حادة: وأمك أنسيت؟

-كلامك هذا خطير!

.-أكثر!

-خسارة!

-هذا ما حدث!ألديك اعتراض؟!

-كلا والله. -ولماذا لم تقفي في وجهها؟ -حينها كانت امرأة قد وصلت

للتو من النبع.

-عمّ تتكلمين يا امرأة؟

عندها غضت البنت طرفها ثمّ انسحبت مكسورة الخاطر. -أنت تعرفينها جيدًا فلا تحاولي خداعي.

-من تكون؟. -فلانة!

-خسارة تفتحين هذا الموضوع قدّامها -النّاس عامتهم على علم بها وأكثر من هذا هي لا تستحق أن تذكر، إنّها من طينة خبيثة عفنة، مرّغت نفسها نجستها وتريد أن تمرّغ النّاس معها وتقتلهم شرّ قتلة نتيجة لمّا تمارسه من سلوكيات لا تليق بالنّساء الحرائر، لهذا كانت ابنتها تكرهها، لأنّها تتعامل مع العسكر، وكم مرّة نصحتها ووقفت في وجهها غير أنّها لم تستمع إليها ضاربة برأيها عرض الحائط متماديّة في فعلتها الدنيئة الوقحة، مما سبب لابنتها إحراجًا وضيقًا أمام جيرانها ولم تجد حيلة تخرجها من هذا المأزق لكونها لحمة منها، وواجب البنت طاعة أمّها، لقد قالت لها ذات مساء والشمس تميل إلى المغيب والطيور عائدة لأعشاشها :هكذا نحن أفهمت؟

-ردّت أمها :ما فهمتش

-ستفهمين، الوقت مازال طويلا.

-علينا جميعًا.

رأسك يابس وستدفعين الثمن غاليا.

- دزي معهم.

-قلت لك هذا الفعل لا يليق، أنت تلعبين بالنار، لن يرحمك أحد، في مقدورك إلا....

-ماذا؟.

-ليس بالضرورة أن تشاركي في معركة ما ولكن لا تؤذي أحدًا.

-أنا لم أفعل شيئًا.

- كيف تتجرئين وتخرجين صبيحة كلّ فجر وتقصدين ثكنة العسكر، ماذا تفعلين هناك؟.

-أخيّط لخطيبك كفنًا أليس كذلك؟

-الشهيد لا يكفن، جميل يا أميّ أن تقفي على الحيّاد والأجمل أن لا تخوني وطنك، الجوع والعريّ لا يقتلان يا أمي، لكن الخيانة تقتل.

-لن تفعلي شيئًا والفدائي الذي تعلّقت به "يدز معهم"

-كلامك خطير وفيه خطورة.

-غصبًا عنّي.

-لا يوجد شيء يدفعك إلى هذا.

-خبزتكم.

-الجوع ولا الخيانة.

-وأنت ما حشرك في....

-حياتك يا أمّي.

-هذا أكبر منك!.

- ولكني لحمة منّك.

-بكري طأطأت البنت رأسها وقد انتابتها هواجس نغصت حياتها وجعلتها تعيش على قلق وخوف، وراحت تردّد في عمق نفسها: ماذا يحدث لو أن فدائيّ الثورة علموا بمكرها؟أو قيض عليها متلبسة بفعل ما؟ونزلت قطرة باردة أحسّت على إثرها أنّ أيّام أمها معدودة وأن أجلها قد قرب، قالت لأمّها يمكن أن تكذبي على شخص أو جماعة في ساعة ما ولكن لن تقدري أن تكذبي على كلّ

الناس وفي كلّ وقت.

-إن لم تكفي عن هذا سأكسر رأسك الآن بكت البنت في صمت، لأنّها تعلم علم اليقين أنَّ الخبر قد بلغ مسمعهم، يبقى القرار فقط لم يفصل فيه بعد، فالقضيّة قضية وقت ليس إلا ولسوف تلقى حتفها هكذا حدثت نفسها ومالت برأسها الصغير وأخذت تفتش عن حلّ يخلصها من هذا الجحيم.

٥

وتوالت الأيّام عاصفة، عابثة بأرواح العزل ورغم هذا الوجع لم تكف أمها عن حماقتها، وأخذتها العزّة بالإثم، وسربت معلومة سرّية للعسّكر مفادها أنّ مجاهدين يتردّدون على دار زينب زوجة المجاهد الطاهر، الطاهر الذي قالت له أمّه ذات ليلة باردة وهي تحرّك جمرات كانون لم تخمد جمراته بعد: أنت الطاهر وتموت طاهرًا يا الطاهر يا بني هكذا قالت له أمّه بعد إن ابتاع لها من سوق القرية جبة وجاءت على قدّها، ففرحت بها فرحًا كبيرًا ودعت له بالخير والعافية والستر والفلاح، سبعة أيام وهي تثني على ابنها ثناء جميلا، المشتى كلها سمعت وما من امرأة تناءى إلى مسمعها الخبر، حتى دعت ربها أن يستره ويمن عليها برجل مثله، نعم الرجال رجال عاهدوا الله على المضي قدمًا، لقد سمعت ابنتها بالخبر، وتمنت لو أن أمّها بها خصلة من هذه المرأة، خصلة تشبهها فقط ولكن البشر معادن ومراتب، ولكم حاولت مرارًا أن تقنعها بأن هذا لا يليق بها ولكنها تمادت في مكرها وغيها وأصرت في تحد مطلق أن تبلّغ العسكر عن تواجدهم ووجودهم داخل دارها، وأنّ زينب هي التي تعدّ لهم الطعام وتغسل لهم الثياب وتقدّم لهم خدمات أخرى، كغسل الملابس وإعداد الطعام ولم تمض أيّام حتى نصب العسكر لهم كمينًا محكمًا عند منعرج خطير

أودى بحياة بعضهم وجرح بعضهم الآخر، لقد سمع سكان الدوّار طلقات رشاش متتالية لم تنقطع، تخللتها كلمات الله أكبر، خاف النّاس وتملكهم الرعب وكثر الكلام والقيل والقال، قضوا ليلة بيضاء ومنهم من انتابه الخوف وبال ومنهم من انكمش في زاوية وكأنه كومة من قش بالية، وهناك من دعا ربه أن يستره ويستر الفدائيين الأحرار، هناك من قال :هم، هم وسكت ولم يضف شيئا.. ومنهم من قال إذا كان هناك شيء فإنّها هي هي، هي من وشت بهم ولسوف تدفع الثمن غاليًا، "الخبر ما يتخبّاش "وبعد تقص ومتابعة نُمي إلى مسمع الفدائيين أنّها صاحبة الفكرة وأنَّ خائن الدار من السّاحة، إنّها هي، طينة خبيثة حقًّا لن يأتي غريب ليشي بشخص آخر وعلى هذا لن نسكت عن مثل هذا الفعل وبدءًا من الآن لن تفلت منا ولن نتسامح مع الخونة، إنهم خائنون أنفسهم، فلنكن أكثر يقظة هكذا قال قائد الجهة ثمّ أردف يقول من ضاعت منه إبرة لابد أن يجدها، والويل لمن تسوّل له نفسه العبث بأرواح النّاس هذه هي فلسفتنا وهذه قناعتنا ومن يمدّ يده للنّار تحرقه، الحيطة والحذر، الله يرحم الشّهداء، المجد والخلود لشهدائنا الأبرار، كان هذا آخر كلام نطق به ثمّ راح يرنو إلى اللاشيء ولم يمض وقت طويل حتى سمعت ابنتها طرقًا خفيفًا على باب دارها، نهضت مذعورة خائفة.

-من؟

-القيادة..!

-نحن لا نعرف أحدًا من أنت؟ -الجبهة فتحت الباب فإذا بفدائيّ قدّامها، حاولت إقناعه ولكنه أبعدها من قدّامه.

-ولكن قل ماذا تريد. -أنا مأمور مثلك تمامًا. -ما فهمتش -ستفهمين لا تضيعي علي الوقت. -ولكن ما حاجتك؟ أمر ولا بد أن ينفذ، وهنا لم تجد

البنت ماذا تفعل غير الوقوف في وجهه متوسّلة، ولكنه أزاحها من قدّامه بقوة عصبية و تسلل إلى فراش أمّها، تخلّص منها، ثم اصطحب ابنتها.

-إلى أين؟

-فلان يحتاجك.

-من...؟

-إنّه هو لا أحد آخر، مشت متثاقلة والحزن يملأ خلجاتها، عادت إلى وراء تراءت لها أمّها، أخذت تبكي بكاء غريبًا، تقطعت به الحبال في ديار الآخرين، لقد أبكتها رغم ما تعرفه عنها، إنّها أمّها ومهما قيل عنها، إنّها أمّها التي مدّت بفمها لترضعها حليبًا دافئًا، لقد أبكتها بصمت دفين وحرقة قاتلة، ولكنها مشت حين مشى من مشى قدّامها، لم تقل شيئًا ولم تحسّ بتعب، صدمت ولم تفق إلا وهي تلج باب منزل مربع الشّكل، تتوسطه مغارة تحت أسفل صخرة ذاهبة في العمق، حفر في وسطها خندقًا يؤدي إلى مغارة تحت سفح جبل، ليس ببعيد عن مركز القيادة، حيث تعقد فيه اجتماعات سريّة للغاية، ثمّ راحت ترنو إلى اللاشيء محمّلقة في زواياه المعتمة، حينها تناءى إلى سمعها صوت شجي لامرأة مختلطًا بأنين وجع لرجل، فدنت منها رويدًا رويدًا وهي تنظر إليها مليًّا، أخذت تنظر إلى وجه هذه المرأة مردّدة في نفسها إنّها هي، وعادت بذاكرتها إلى الوراء قليلا تحدث نفسها قائلة:هذا الوجه ملامحه ليست غريبة عن رؤاي، إن حدسي لن يخني، إنها هي، هي ودنت منها وهي ترى رجالا ينسلون واحدًا أثر واحد، لقد وقفت مشدوهة فاحتارت في أمرها وراحت تسألها:

-من هؤلاء الذين أراهم ينسلون من حين لآخر وعلى فترات متقطعة واحدا تلو الآخر؟من هؤلاء الذين يحملون على أكتافهم بنادق صيد وعلى راحتيهم نجوم تنام؟.

– هؤلاء أشجارنا.

–لم أفهم يا خالة شيئا.

–يبدو أنّ عقلك محدود يا امرأة!

–ربّما و لكن!

–لا داعي للقلق أنّهم جند –ومن التي تخدمهم؟. –العمالة.

–ومن تكون هذه من خلق الله؟

– إنها امرأة تعمل في سريّة تامة، حلمها أن ننتصر وترفرف راية الحريّة في دنيا الوجود

–وأنا؟!

–وأنت كذلك ولكن –ماذا؟ – لماّ تقضي حاجتك.

– مافهمتش!

–لمَ كلّ هذا؟

–فلان يحتاجك.

–من؟!

–أنت تعرفينه أكثر مني.

–وعادت إلى الوراء، مرّت في مخيلتها صوّرته. –قالت ماذا لو...

–عمّ تتحدثين يا امرأة؟.

– ضحكت المرأة مردّدة السّكوت لم يعد علامة.....

–علامة ماذا؟

–الرضا.

–كلا..

– و تمّ عقد قرانها.

-قال عبود مخاطبًا خطيبته ألا تعرفينها؟

-ملامحها ليست غريبة. -ركزي قليلا وانظري مليًّا -إنّها.....

-من؟ خالتي..... -خالتي باية أليس كذلك؟

-إيه..... ولكنها لم تخطر على بالي إنّها مجاهدة، أعرف دارها وكثيرًا ما أعطتني كسرة ملفوفة في قطعة قماش وكلما حدثتها عن الفدائيين تحذرني مردّدة أنّ الكلام تأخذه الريح، ، أنت صغيرة والحياة لم تأخذ نصيبها منك أفهمت؟. أضحك ولا أفهم شيئًا، ولكن لم يخطر على بالي ألبتة أنّها تتعامل معكم، لأني صراحة لم أرَ على كتفها بندقية، رغم كثرة تردّدي على دارها، لكني عن جهل ما في أسفلها.

- إنّها امرأة بسيطة جدا متواضعة تقرأ على تقاسيم وجهها الدائري ملامح الوداعة والنبل والوداعة، إنّها أم السّعد ألا تعرفين ابنتها؟ -نعم أعرفها جيدًا. إنها هي بلحمها وعظمها لن يلحقك منها أذى إطلاقًا، لم تمد يدها لأحد أولم على أحد وكثيرًا ما تجدها تميل إلى العزلة والصمت المطبق، وحالات لا تكلم أحدًا ولا تدخل في مراء، امرأة تجاوزت العقد الثالث تزوجت ودخل عليها زوجها وهي لم تبلغ السّادسة عشر من عمرها، لها ثلاثة أطفال ورابعهم سيأتي بعد الصيف، هكذا قالت خالتي باية، زوجها جندي استشهد في معركة السوق بعد أن طوّق العسّكر المنطقة وأشعل النّار في دارها ولم تفلت حتى البهائم من جرمهم، لقد أحرق كلّ شيء، أحرق سنابل الحياة، ، لقد قتلوه بعد مطاردته و محاصرته قاوم ولكن ذخيرته نفذت، عندئذ قتلوه ثمّ جرّوه على وجهه ورموه في مجمّع مائي جنب نخلة ذاهبة في الطول، لم تبكه امرأة عدا حمامة كانت تفرخ فوق رأس نخلة، لقد أرسلت هديلها في نبرة حزينة، هكذا قالت لي خالتي باية ذات عشيّة قبل أن التحق بالجبل، منذ ذلك الوقت أوقفت حياتها خدمة للثّورة

والثّوار الذين كثيرا ما يعقدون اجتماعاتهم داخل دارها التي توجد في أسفلها مغارة متربعة على بعض أمتار، وقد حفرت بطريقة لا تلفت الانتباه ولا أحد يعلم بها، حفرة تتربع على مساحة صغيرة تأوي المجاهدين، لقد صارت مقرا للقيادة ولتبادل آراء والتقاط صوت –هنا القاهرة–هذه القناة التي تضامنت مع الثورة والثوار تنقل أجداثهم وتسمع العالم والعالم شريك في الجريمة، ثم أدارت رأسها سائلة إياها عن هذا الرجل الفحل المسند ظهره إلى صخرة صلدة ألا تعرفينه؟إنه عمّي أحمد رجل ثوري حدّ النخاع لا يخاف من العسكر رغم أنّه تمّ القبض عليه وتعرض لتعذيب أفقده فحولته ولكنه لم يش ولو بمعلومة صغيرة عن إخوانه المجاهدين عندما ألقي عليه القبض متلبسًا بفعل المساندة ودعمه للفلاقة كما يسمونهم، لقد سلطوا عليه عذابًا ولكنه لم ييأس وكان أمله كبيرًا في النجاة، لقد حفر حفرة قد قامته ثم تسلل عبر قناة صرف المياه القذرة، قناة تصب خلف الثكنة، فلما استفاق الحارس من غفوته في الرّواق المجاور صاح صيحتين تردّد صداهما ولكن لا شيء هناك، فرَّ عمي أحمد وبقي الحارس ينبح كالكلب، هذا ما حدث، هكذا قالت ثم أردفت تتذكر ما مرّ به ولكن عمي أحمد لمّا سمع بخبرها زارها في كوخها وبعد أن استفسر عن حالها وقف معزّيا لخالة باية في مصابها الجلل:البقيّة في حياتك وحياة أطفالك وما أقوله:دمه لن يذهب هدرًا يا امرأة، إنّه رجل لا كبقية الرجال، رجل أحبَّ وطنه بصدق رغم ثقل المحن، وشظف العيش، الله يرحمه والبقيّة في حياتك وحياة أبنائك، ثمّ مد يده ماسحًا دمعتين حارتين، ولكن خالة باية لم تبك بل زغردت مما أحتار في أمرها أطفال الدوّار، فأقبلوا مثنى وثلاثة ومنهم من جاء يجري حافيًا ومنهم من كانت مؤخرته نصف عارية بعد أن عبث الريح ببلوزته السّوداء.–لقد جاءوا طالبين الفأل. ردّت لخالة باية واش يخصّك يالعريان؟

قُولوا : خاتم.أم خجلتم؟.

-لم يفهم الأطفال شيئًا ثم عادوا من حيث أتوا والحق يقال :إنّها امرأة فوق العادة، كثيرًا ما ترددت على دارها وأكلت من يدها، عاشرتها، ورغم هذا لم تش لي مرّة بسرّها ولّما استفقت من غفوتي الوقحة تناءى إلي صوتها، وهي تسألني هل رأيت التيوس اليوم، وهل سمعت هبهبتها؟.

-أردّعليها ضاحكة ومنذ متى كان لنا تيوس حتى نسمع هبهبتها.-تضحك لاله باية وهي تربّت على كتفي مبتسمة قائلة :كم أنت صغيرة يا ابنتي، في وطننا أشياء كثيرة جميلة ومربكة في الوقت نفسه، ولكنك صغيرة غير قادرة على تفكيكها وقراءة سرّ خطابها، خطاباتنا مشفّرة تحمل دلالات مبهمة. ولكن.- أنا من كنت بلهاء.

-لماذا؟. -لأني كنت اعتقد أنّها فعلا تستفسر عن المعزات.

-وعمّ كانت تفتش؟

- كلمتها تحمل message.

-كيف ذلك؟.

-لأنها تستخبر عن خروج العسكر من ثكنته.

-لماذا؟

-لأنّ تحت أسفل كوخها، جندي جريح جيء به لتضمّد جراحه. -ومن يكون هذا؟

-الرجل الذي دوّخ فرنسا وحيّرها في مضجعها؟

إنّه العيّاشي، رجل لا يشبه الآخرين تجده دائمًا يبتسم متمنيًا ألا يصل عليه فجر الحرية والاستقلال، هكذا قال مخاطبًا لاله باية مما احتارت في أمره ولم تفهم شيئًا، ولم تمر أيّام كثر حتى بلغ الخبر مسمع العسكر، خبر مقتل السيّدة والتحاق

ابنتها بالجبل، فشّن معركة دارت رحاها قرب واد النيل، فتبادل الجيشان إطلاق النار استمر لساعة ونصف مما مكّن المجاهدين من قتل عسكري وجرح آخرين ورغم هذا فإنّ العدّو لم يتراجع، وتمَّ تزويده بإمدادات بريّة وجويّة، واشتد وقع المعركة، طائرات هيلوكبتر تحلق، جيش مدجج بأسلحة أوتوماتكية، آليات حربية، صاح البركة وهو يعبر واد بشورط أحمر وقبعة دكناء قاتمة وفي يده ماط ٤٩ قال بالحرف الواحد:اليوم لابد أن تمطر السّماء رصاصًا وقنابل، يوم أحمر، احمرار دم الشّهداء، الحرّ من استشهد، والعبد من خبّأ رأسه، لن يفلت منا، لن تخيفنا نار بنادقه، بنادقه بنادقنا، مدفعيته لن تزيدنا إلا إقدامًا واقتحامًا والنّار تشتعل، طلقات رصاص متقطعة، جنود ينتشرون والمعركة يشتد وقعها والذخيرة تكاد تنفذ والعسكر يزحف، حوّامتان بانتا في الأفق الغربي بعيدا فوق البحر يُسمع دويهما يقترب شيئا فشيئا، والجنود ينتشرون يطوّقون المنطقة، واللّوحة لم تكتمل بعد، هناك ألوان تنقصها، مسحة من اللون الأحمر طغى عليها، صاح ضابط عسكري:ألقوا أسلحتكم لا أمل لكم، سلّموا أنفسكم، لا أمل لكم في الحياة، سلّموا أنفسكم قبل فوات الأوان وقبل أن ينهي كلامه تناءى إلى مسمعي صوت العيّاشي يعلو مردّدًا لا شيء يعلو فوق إرادة الإنسان ولم يكد ينهي كلامه إذ بطلقات رشاش مكثف تمزق الأجواء وتمّ تبادل إطلاق النار فقتل على إثرها ثلاثة مجاهدين من خيرة ما أنجبت هذه القرية.

حزن قائدهم حزنًا عميقًا، وطغى على الدوّار جوّ جنائزي، بينما راح العدو يحيّ لياليه الملاح، موسيقى جاز، رقص، غناء، كؤوس تقرع على نخب الانتصار، قهقهات تملأ الملاهي.وما هي إلا دقائق حتى جيء بحركي عبر قارب صيد في حراسة مشدّدة تمَّ إنزاله قرب فيلة مسندة ظهرها لجبل، فيلا تطل على البحر، لكن العسكر لم يخطر على بالهم أنّ فدائيًّا تسلل إليها،

فدائيّ مغامر، تأبّط مسدسه وتوغل في رواقها ثمّ اختبأ في مكان ليس ببعيد عن مدخلها، قبالة مرآة علّقت على جدار بهوها الصغير، ولج الحركي باب الفيلة، لم يلحظ شيئا، الأشياء في أماكنها لم تمسسها يد إنسان، هاهنا كرسي قدّامه طاولة خشبية، في مؤخرة بهوها مزهرية، مشى وهو يجرّ خطواته جرًّا، وكأنّ ركبتيه تكسرتا، أو نزل فيهما أسمنت.

إنّ إحساسًا غريبًا يملأ نفسه على غير العادة، وكأنّ شيئًا سيقع، خطا خطوة خطوات ثمَّ وقف قبالة المرآة متأملا ملامح وجهه، وراح يمّرر راحة يده على تقاسيم وجهه، لقد نما شعر لحيته وتبعّثر شعر رأسه، خمسة أيّام لم ير وجهه في المرآة، إنّ أشياء كثيرة قفزت إلى ذاكرته جعلته نسيًّا منسيا، وخز الضمير يهزه، صيحات تملأ أذنيه طنينا، تهزّه على غير عادته، إنّها صرخات امرأة وشى بها وقتلت شرّ قتلة بعد أن تمّ اغتصابها عنوة أمام مرأى أبنائها، إن صورة هذا المشهد البربري زعزع كيانه مما جعله يقيس مسافة بعد وجهه عن المرآة فإذا بصورة فدائيّ تنعكس على إحدى زواياها، فانكمش الحركي ومات في جلده، ولم ينبس ببنت شفتيه، تربّد وجهه وغارت عيناه ولم يتحرك من مكانه وكأنّه وتد من خشب، لكن صورة الفدائيّ وهو يشير إليه بسبابته، مستظهرا مسدسه، جعلته يدير وجهه بحركة بطيئة، أفكار طفرت إلى رأسه خلخلت ذاكرته ولم يعثر على جواب كافٍ، من يكون هذا؟ومن جيء به إلى هنا؟ومن أي باب دخل؟ومتى حدث ذلك؟وأنّى له ذلك؟وخلص إلى نتيجة أن أجله وصل لا محالة، مسكه الفدائي آمرا إيّاه بالمشي قدامه ثمَّ أخرجه من جهة خلفية قبالة جبل بعيدًا عن الصخب.

-أنت أليس كذلك...

-بلى ولكن كيف دخلت؟.

-هذا لا يعنيك.

-وماذا أنت فاعل بي الآن.

-ما فعلته أنت.

-في حق من؟

-في حق أبناء جلدتك العزل.

-ما فهمتش.

- الأعزل ما لا يملك سلاحًا يدافع به.

-وأنا كذلك لا أملك

-سلاحك أنت حلاّن الفمّ، على الأقل أغلق فمّك.

-غصبا عني.

-ألم تضطلع عن بياناتنا

-كلا.

-بياننا بيان واحد ليس أكثر. -ولكن لم أسمعه - ستسمعه لا أحد أرغمك على الخيانة.

- من أنت؟

-فدائيّ مأمور.

-هذا الذي أربكني

-من جئ بك إلى هنا؟

-من تقاتلونهم.

-ولمَ حشرت نفسك في هذا الرّواق؟

-غصبا عني.

-لمَ أنت ساكت تكلم؟

-السكوت لم يعد علامة الرضا.

-هل أنت مصدوم؟

- صرت عاجزا لا أقوى على فعل شيء؟

-لمَ أنت خائف؟

-ما أخاف منه أصل إليه اليوم أوغدا.

-لماذا تخاف من شيء لم يقع وتحزن على شيء وقع؟

-الخوف حق مشروع.

- الخوف يجري الرجال في الطرقات أليس كذلك؟

-بلى لقد خُلقت لأخاف، لا لأخوّف الآخر.

-لماذا أنت تنظر دائما إلى الخلف أليس لك مستقبل؟

- منذ متى كان لي ماض حتى يكون لي حاضر؟

- هل أنت مع الجلاّد أم مع الضحيّة؟.

-الاثنان معًا.

-لماذا؟

-مكره أخاك.

-لا أحد يكرهك على فعل الشرّ، من منّا لا يعرف الشرّ، الشرّ ما يؤذيك يؤذي الآخر.

--صح.

لمَ لم تختر الموت من أجل وطنك؟،

-هذا الذي فكرت فيه كثيرًا.

-فيم فكرت؟

-في التحاقي بالفدائيين.

-أكذوبة، خساستك لا تنبئ بهذا.

-غصبا عني.

-كذّاب.

-الكهرباء لا يرحم أحدًا.

-تستشهد.

-صدمت ولم أعد أعي ما أقوله.

-يكفي ترهبين.

-قل خفت.

-لم أعد أطيق ألم التعذيب.

-لابد أن تقاوم.

-حاولت، لم أقدر.

-كذّاب.

- يجوز أن تكذب على عدوّك.

-كذبت مرّات.

-لا، صرت جاسوسًا، نطقت...

-الله غالب.

-فاقوا.

-ولكن....

-ماذا؟

-مطلب واحد ليس إلا..

-ما هو؟

-أنتم أدرى.

-إعدامك يا التهامي هذا جزاء من يخون وطنه.

-تربّد وجهه ونزل الندم في قلبه سخطًا وتدمرًا: -قال فدائي...لا تقلق.

-معنى هذا....

-ماذا تقصد؟.

-بشرط. قال آخر لا شرط ولا شيء آخر خاف التهامي وارتبك، كان يعلم علم اليقين أنّ السّاعة وصلت، تذكّر هذا ومال برأسه، مرّت في مخيلته صوّر موجعة لأسماء كان سببًا في تعذيبهم وإعدامهم!ظلما وعدوانا، لذا ها هو الآن ضميره يؤنبه ويهزّه هزة عنيفة، صرخات تملأ رأسه الصغير، إنّه صراخ امرأة وهي تتأهب للزواج تمّ إعدامها، بعد أن اغتصبوها عنوة، لقد اغتصبوها جهارا، تسعة عساكر مرّوا عليها، صارت فريسة وهي لم تتجاوز العشرين سنة. إنّها امرأة جميلة حدّ الروعة، تذكّرها وتذّكر صورًا رهيبة طغت عليه بفيضها، صورة وطن يغتال أمام عينيه، نطح رأسه إلى شجرة بلوط، لعلّها توقظه من غفوته الوقحة يا إلهي ماذا ارتكبت و القيادة ستفصل في قضيتي الآن.

-هناك من نطق..لا محكمة للخونة ومصيره الذبح وأغلق الملف، هو من كان يخبر العسكر عن مخابئي المجاهدين ويستهتر بثورتنا وعندما يشرب الجعة يأخذ في الغناء عن زوجاتنا، لا أحد غيره ومصيره الإعدام لا محالة، وأكثر من هذا وذاك يتفاخر بقوة سلاح عدونا وكأنه معمر من المعمرين رغم أنه بربري مثلنا وليكن في علمه" أن البرابرة نوع من الحلّ " -لكن هناك من ألّح على ضرورة توظيفه في أشياء تكسب الثورة شيئًا من القوة لأنّه خالطهم ويعرف خرائب القرية، ما دام يعرف كلّ كبيرة وصغيرة، قتله لن يضيف للثورة شيئًا.

-تبادل الطرفان الأمر وبعد أخذ وردّ تمّ تأجيل قضيته.

قضى التهامي مدة زمنية يترقب الحكم على أحر من الجمر، عُوقب عقابًا

نفسيًّا، لقد رُبط إلى جذع شجرة بلوط في العراء، لم يذق طعم النوم ولم تعرف رجلاه مددا وما من يوم يمرّ حتى يزداد وهنًا، لقد تراءى له في حلمه أنّه يذبح شرّ ذبحة على شفة هوة ذاهبة في العمق، صاح وارتعد، تذكّر أمّه، أباه وأشياء أخرى، عاد إلى وراء ولكن كل الأشياء بدت له قاسية صلدة، هذه أمه الفلاحة الساذجة التي تعمل في النهار في إحدى مزارع الكولون، هذا أبوه الذي عاقبته الثورة وحبسته مدة زمنية حتى تتأكد من أمره، هذه أخته التي خرجت مع فدائي ولم تعد إلى كوخهم. هذا جاره الذي اقتيد إلى ساحة سوق البلدة حيث أعدم وقد جيء به بعد مطاردة دامية جراء عملية فدائية نفذها بنجاح كبير في مقهى فقتل عسكريًّا ويروى أنه رفض العصابة، التي تقدم بها نحوه ضابط فرنسي ليضعها على عينيه، رفضها ساخرًا من الموت، الموت الذي أعتبره طاقة متجددة رغم أنه في مقتبل العمر والدنيا لم تأخذ حقها منه بعد، شابٌّ غض طري مقبل على الحياة ويروى أن أمهزغردت لهذا المشهد، رغم أنه مشهد رهيب اهتز له الناس جميعهم، صغيرهم وكبيرهم وهم يرون العسكر يجره بعد أن لفوا حول عنقه حبلا متينا لكنه لم يخف بل هتفت عاليًا، مباركة شجاعته والشرف الذي نالها منه، وأنه أجابها وهو يبتسم "لا تخشي علي يا أمي فإني لا أخاف رصاص الأعداء، ولا أجزع من الموت في سبيل عزّة وطني..الله أكبر ولله الحمد.."لقد ندم على ما ارتكبت يداه وتمنى أن يكون كمثل جاره ولكن أنى له ذلك، لقد تذكر صورته وهو يتقدم بخطى ثابتة وشجاعة كبيرة. إنّ صورًا هزّت مشاعره جعلته نسيًا منسيًا، صورة شاب في ريعان شبابه مقبل على الزواج وشى به إلى العسكر بحجة أنه يمدّ الفلاقة ويخبرهم بتحركات العسكر، وحينئذٍ تمّ اعتقاله وعُذب عذابًا شديدًا لقد رأى كيف يمارس الجنود أنواع التعذيب في أجساد المعتقلين عن طريق إزالة شعر الحواجب وأهداب العينين،

وحلق نصف الشارب ونتف شعر الرأس وسلخ الجلد، ودقّ المسامير وسلخ جلودهم ووضع الملح في مكان الجروح إلى جانب خلع الأظافر والأسنان وفقع العينين وبتر الأصابع والآذان و إجلاسهم على أطراف القضبان الحديديّة أو الزجاجات والمشيّ على الزجاج، كلّ هذه الصور مرّت عليه لقد رأى مالم يُر، ندم التّهامي على أولى خطوة خطاها في هذا الطريق، طريق جهنم، لكن كلّ هذا لم يخلصه من هذا الوجع، وانقضت المدّة، وبينما هو في هذه الحالة إذ جاءه اثنان من الفدائيين.

-الأوّل استظهر موسه والآخر مسدسه، صاح التهامي وقفز ولكن عبثًا يحاول.

-قال فدائيّ :الأوّل به والثّاني به والثّالث به.

-ردّ التّهامي ما فهمتش.

- الأوّل محمد وصلّ عليه، والثاني الوطن عمرك ما تهوّن فيه، والثالث من لا يأخذ برأيك ما دبّر عليه.

-بكى التهامي وارتجفت فرائصه.

-أما الفدائي الثاني صاحب المسدس فقال له:اختر الوسيلة التي ستقتل بها.

-قال التهامي إذا كان هذا هو مصيري، فأني أفضل طلقة ناريّة ساخنة.

قال الآخر:وهذا الموس أليس وسيلة؟أنت ميت به أو بغيره، فلا داعي للقلق وكلّنا نموت اليوم أو غدا، فالموت شيء مؤقت، ولا أحد يملك الغد لا الصبيّ ولا الشّاب ولا الشّيخ.

-لكن التّهامي أخذ يبكي بكاء غريبًا تقطّعت به السبل.

- وصيتك؟

-لا وصيّة لرجل مثليّ.

-ربّما تذكرت شيئا.

-لا شيء.

--أمّك.

وماتت دمعتان في قاع بؤبؤه الأسود البعيد.

-ما يبكيك؟

-نصيحتها التي لم أعمل بها.

-بم نصحتك؟

-الوطن، المال، العرض، من مات من أجل واحدة من هذا مات شهيدا..

-وأنت!.

-هذه ضالتي!!

-"أوحسبت أنّك تحسن صنعا "

-لا والله"أنا عبد الله الذي ظلّ سعيه في الحياة الدنيا ".

-"لا تعتذر عما فعلت"

-إنّ المرء ليخطئ والحيوان يعثر.

-تبرير العجائز.

-كلا.

-إن عفوتم عني سأكون من الوطنيين المخلصين

لقد أخطأت يا سيّدي إني اعترف-

لكن خطأك قاتل ومميت.

-العفو عند المقدرة خير من التشفيّ.

-صرت حكيمًا.

-لا علم لي، لو كنت كذلك لما خنت وطنيّ.

-أصبت.-

قلت لن أكذب وسأكون وفيّا لوطني.

-ومن يصدقك؟!

-نفسي أنا.

-من يقتنع بفكرتك؟

- أنا لا أحد.

-أنت تتمهبل وتلعب فيها مرابط وبوليس.

-حاشا لله.

-حاول أن يقفز وهو مشدود.

-لن تقدر.

-على ماذا؟

-تسخيرك.

-كيف ذلك؟.

-أنت أدرى.

-ألم تتعش معهم؟.

-بلى.

-هل قبلت بهذا؟..

-ألف نعم..

-فكّ وثاقه.

-فرح التّهامي أيّما فرح، أحسّ أنّه ولد الآن، إنّ فرحًا ملائكيًّا يعلو تقاسيم وجهه وراح يرقص زهوا وحبورا مغنيّا أغانيّ الطفولة والوطن، لقد أقسم جازما أنّه سيكون في مستوى قرارهما، وقفز راكضًا مقبّلا أيديهما.

-ردّ الفدائيان حاشا لله..إيّاك..

-سأكون بإذن الله عند حسن ظنكما، طلباتكما..

-لمَ العجلة أنت في أمان الله ولا أحد من الآن بمقدوره أن يلحق بك أذى، كن عند حسن ظننا وثقتنا، فبئس العبد من لا هدف له.

-ثقتي فيكم كبيرة ولسوف تترجم إلى واقع والله شاهد على ما أقول. من يسمع إلى كلامك يعتقد أنّك مصلح أو وسيط سياسي..

-أنا لا أفهم في السّياسة شيئًا، ولعمريّ ما دخلت المدرسة يومًا.

-لكن فرنسا فتحت لكم أبواب مدارسها.

-لمن تريد.

-و أنت.

-لا وزن لي عندهم..

-كيف؟

-لأبناء القيّاد وأصحاب الجاه والمال.

-والفقراء؟

-العلم يُعطى لأهله-وأنت!

-خفت والخوف حقّ مشروع.

-ممن....؟.

-من جنودها.

-و ماذا ارتكبت؟

-وجودي بينهم مكان تنفيذ عمليّة فدائيّة.

-و هل نفذتها؟

-لم تفهمني.

-لست أنا..

-من؟!

-لست أدري، كلّ ما في الأمر.

-ماذا؟

-العسكر حشدنا ثم أشبعنا ضربًا.

-ثم أخذونا إلى أقرب مركز. deuxième-bureauاستنطقونا ثمّ تبولوا علينا بعد أن نزعوا ملابسنا، عبثوا بنا أيّم عبث، أدرت وجهي صدفة قبالة جدار لم أر إلا بقايا لحم إنسان و دمه، بقايا أصابع دُقّت عليها مساميرُ، التعذيب يجعل المرء يتفوه بكلمات لا يعرف أبعادها وأكثر من هذا قد يتبنى عمليّة و هو بريء منها، هناك أساليب همجيّة لا تخطر على عقل بشر.ثمّ جذبني بقوة عصبية لا تقهر قال لي بالحرف الوحيد أنت من فعلتها وسأريك الآن ما لم تره في حياتك وبعدها أومأ لخمس جنود أن يقتربوا مني ثم أحاطوا بي قال عسكري مخاطبًا ضابطه :أمرك سيدي.

قال الضابط: انزلوا سرواله وافعلوا فيه ما شئتم وهنا صرخت مردّدًا سأقول الحقيقة ثم قلت إذا كان هذا الاستقلال يأتي على شرفي وشرف مؤخرتي فإني سأقولها.

--ماذا قلت -أخاف إذا كررتها -لا تخف كن رجلا فقط -الأمر خطير -فيم تكمن خطورته، فأنت بين أيدين الآمنة -أنه لأمر محرج -إن لم تقلها مصيرك الموت -قلت -ماذا قلت -يلعن بوه استقلال اللي يجئ على مؤخرتي فانفجرا ضاحكين، لهذا خفت منهم وصرت أتعامل معهم ليس قناعة ولكن غصبا عني.

-غصبا هذا غير مقبول ولست أفضل من غيرك -لكني لم أهضم فكرتهم

ولم أكن أعتقد أن قوم لوط عادوا لهذا فعلتها، غصبا عني التعذيب لا يرحم أحدا

-اعتقدت أنّها نهايتك.

-أكثر وأحيانا يتمنى المرء الموت خير من أن يعبث عسكري بفحولته، هناك الكثير من فقدوا فحولتهم وعاشوا محرومين من لذة الحياة الدنيا، العسكر يفعل أشياء لم تخطر على عقل إنسان يتفنن في التعذيب انتقامًا ونكالا، وقد تمّ تطبيق كلّ أنواع التعذيب التي توصلت إليه مدارس جان دارك، هناك من فقئت عينه، منهم بترت يده، ومنهم من فقد ذاكرته والموت لمن قبض عليه متلبسًا بتهمة، قتل جماعيّ وآلة الحفر معدّة خصيصًا بعدها يهيبون عليهم ترابا. إنّها جرائم إنسانيّة ارتكبت في حقّ أناس عزل، جرائم يندى لها جبين الإنسانية، ما أقوله لك ليس كلامًا جميلا محكمًا بل هي الحقيقة بعينها لانّ الحقائق يا سيّدي ستظهر لانّ الجرائم لا تموت مهما حاول العدوّ إخفاءها وطمسها صفحة تقلب ولا تنسى، فقوافل الشهداء خير دليل.

-تبدو أنّك على شيء من الوعي ولكنك ارتكبت حماقة قاتلة.

غصبا عني ما رأيته لن يمحى من الذاكرة والى الأبد.

ماذا رأيت؟

-تمنيت ولكن.

-ماذا....؟

-لم يحدث

-الموت خلاصك من هذا العالم الأعرج.

-خنت وطنك، ثورتك.

-مكره أخاك.

-لا أحد أرغمك على هذا الفعل الدنيء.

-غصبا عني.

-كان في مقدورك أن تلجم لسانك.

-الصمت لم يعد حلا.

-ربّما تذكرت شيئا.

-أكثر.. أمرك يا حضرة الضّابط.

-الأمر بسيط والمهمة معقدّة نوعا ما.

-لا تذهب بعيدًا، ودع الأمور تسير سيّرا طبيعيّا و أسلك سلوك الأذكياء من الناس البسطاء.

-سلوك الأذكياء!

-ما معنى هذا؟

-الذكاء هو القدرة على حلّ المشكلة في وقتها المناسب ومهمتك تنفيذ عمليّة.

-عملية فدائيّة!.

-أين؟!

-أنت أدرى بخرائب القرية.

-متى؟

-اختيار المكان والوقت والأشخاص أشياء تدرس و تبرمج بدقة متناهية لا تحشر أنفك فيها فهي أكبر منك حجما.

-معنى هذا!...

-بالضبط.

-الملهى و الوقت samedi soir

-تعرف معنى هذا....

-إنّها فرصة يلتقون فيها.-

أعرف الملهى لكن عن جهل متى أدخل المدينة.

-الساعة الخامسة.

-و المهمة.

-تفجير المكان.

-و الوسيلة.

-تجد كلّ الأجهزة جاهزة.

-وحدي!.

-لا... لسنا سذجا.

-معنى هذا هناك من يرافقني.

-قل ترافقك.

-امرأة؟

-ألديك اعتراض؟

-رائع!، المرأة لا تثير الانتباه أليس كذلك؟

-شيء من أشياء.

-مسافة ساعة.

-وماذا أفعل؟.

-أنت لا تفعل شيئا، دلّها فقط عن الملهى.

-سهل للغاية

-إيّاك.

-ماذا؟

-أو يختلف عاقلان في هذا.

-أراك تفتّش في عودة أخرى.

-إلى أين؟

-إلى ما كنت عليه من قبل.

-هذا لن يكون والى الأبد.

-توبة أم خوف؟

-يكذب عليك من لا يخاف.

-معنى هذا أن الذئب يتوب.

-ضميري.

-ما به؟

-الندم توبة يا سيّدي، الندم مفتاح التوبة وسرّها.

-لا أعتقد.

-سترى..أنا من يعرف خرائب المدينة، خالطتهم من أبسط جنديّ إلى قائدهم.

-هذا صحيح.

-وماذا بعد؟

-حتى أسرار نسائهم.

-يبدو أن سلوكك اندفاعي.

-ممكن إلى أبعد حد، أنا من سهرت معهم وأكلت من أيديهم، جالستهم، عاشرتهم، قرعت الكأس معهم، شربت حتى الثّمالة، رقصت، ردّدت إيقاعات موسيقاهم، عرفت طبائعهم وأبعد من هذا لقد راودتني فكرة وأردت أن أتزوج من بنت معمّرة، لأنّ أباها صاحب جاه ومال، وأنا أحبّ الحياة السّعيدة، الحياة

التي لا مكانة للقهر الاجتماعي فيها، رغم أنّ الحياة السّعيدة ضرب من الشّدود الاجتماعيّ.

-وكيف يلد لك العيش وأنت ترى قبر أخيك!.

-ما فهمتش!

-وضعنا الذي لا نحسد عليه.

-ولكنها بنت هيفاء جميلة حدّ الروعة.

-ولكن ظروفك لا تسمح لك بهذا.

-كثيرا ما كنت أنتظر الفرصة المناسبة، لقد حدثتني عن سرّ مجيئها للجزائر وهي تعرف عن كثب أنّ هذا الوطن بلد الشمس والجمال ليس وطنها وأن أرضه ليست أرض أجدادها، وكثيرًا ما كنت أسعد بلقائها كلما مالت الشّمس إلى المغيب، أيّام قضيتها معها وكلما رأيتها ازدادت لهفا للقاها ولكنها كانت تخبئ شيئًا في عينيها رغم أنني وعدتها بأشياء كثيرة جازمًا لها بأنّي سأكون عند حسن ظّنها، ولكنها تحفظت ولم تف بوعدها وافترقنا وحدث لي ما حدث للشمس "حين توسّلت للبحر أن يعظها قال لها البحر إياك أن تقعي في حضني"ووقعت ولم تقع الشّمس، بعدها تمّ القبض عليّ متلبسا بجرم، خيانة وطنيّ وأنا غصبا عني فعلتها ومن الآن فصاعدا لن أفكر في هذا وإلى الأبد هذا وعد منيّ ووعد الحرّ دين عليه.

-هذا الذي نريده منك ولكي تثبت وجودك معنا لابد أن تترجم كلامك إلى أرضيّة واقع ملموس وهذه العملية مفتاحه، فإن نجحت فيها ونفذتها فأنت واحد منّا، لذا كن عند حسن ظننا واترك البقيّة علينا.

-معنى هذا.-

المرأة التي تحبّها.

-أحسّ التّهامي بإحساس غريب لم يعرف كنهه وأنّ شعورًا ينمو بداخله يجعله يحسّ بوجوده كرجل يقف على قدميه مواجهًا واقعه بكل عزم و حزم، إنّ عبئا ثقيلا قد أزيح من على ظهره، حمل نغصّ عنه سرّ حياته وجعله لا يقدر حتى على رفع رأسه قدّام النّاس، الآن تحرّر ولا يهمّ ما سوف يقع، يقع ما يقع الأهم هو الآن في نظرهم رجل حرّ هذا ما تردّد وقعه في عمق ذاته؟.

-ردّ مجاهد من مكان ليس ببعيد عنه لا تقلق.

-صاح التّهامي من أنت؟

-الغابة لها أذناها.

-هذا الذي لم انتبه إليه. -لابد أن تنتبه لكل كبيرة وصغيرة والسرّ في موطن السرّ، الصلاة وفيها سرّ.

-ولكن ماذا أنت فاعل هناك؟

-أو تعتقد أنّي مثل الكلب يرفع رجله ليبول، أنا في مهمة أخرى لا تخف، فأنا بصدد مراقبة المكان وتنظيف السّلاح.

-سلاح!

-وأيّ سلاح هذا؟

-لا يهمّ شكله ونوعه، الأهم أنّه يحقق هدفه.

-وسلاحي أنا.

-سلاحك في يد عدوّك.

-ولكن.

-ماذا؟

-أنا من نفذت عمليّة فدائية واستوليت عليه.

-معنى هذا؟

-ما فهمته.

-ما فهمتش.

-سلاحك هناك.

-أين؟

-في يد عدوّك أو على كتفه.

-والحل.

-يوم تكون رجلا تستطيع أن تملك قطعة سلاح.

-ومتى؟.

-يوم يشاء الله.

-ومتى يشاء الله يا صاح.

-ضحك المجاهد يوم تنفذ عمليتك الفدائية.

-إن شاء الله.

-آمين.

٦

بعد ساعة وصلا إلى عين المكان، أخذ التهامي يتحرّش بها، راودته عن نفسها مما جعل رواد الملهى يتضاحكون وهناك من حسبه مخبولا لا يعي ما يفعل ولكن المرأة ابتسمت له في صمت مغتنمة فرصة الدخول إلى الملهى وما إن حاول إمساكها من خاصرتها حتى ولجت الملهى راقصة وكأنّها لا تحمل شيئا وفي لحظة هستيرية دسّت قفتها تحت طاولة مهملة، ثم قفزت خارج الملهى ضاحكة وهنا ركض خلفها التهامي محاولا الإمساك بها ولم يمرّ وقت طويل حتى هزّ المكان انفجار رهيب، ساد الملهى هرج ومرج، وضوضاء، غبار ملأ فضاءها، هناك من قتل وهناك من بترت رجله إلى أعلى الفخذ ومنهم من أغمي عليه، جرى العسكر وهم يطلقون طلقات رصاص في الهواء، أعقبته فرق تدخل ثمّ سيارات إسعاف، إنّ المشهد لمخيف حقا ولكن لا شيء يعلو فوق إرادة الإنسان.

-وصل العسكر، قال جنديّ للنادل ماذا حدث؟

-تفجير الملهى.؟

-منذ متى؟. -قبل لحظات فقط.

-أرأيت شخصًا؟

-امرأة رفقة رجل ملامحه ليست غريبة عنّا.

-ماذا كانت تحمل معها..

- قفة يا سيّدي قفة.

- أتعرفه؟

-تقاسيم وجهه!.

-ما بها؟!

-إنّه هو..هو..

-من؟-

الرجل الذي تقاسم معنا الخبز والملح.

- ما فهمتش.

-وخالط نساءنا.

-أمر خطير!

-قلت لكم..

-من؟

-إنّه هو، هو.

-لكن من العسكر من لم يفهم شيئا.

-قال ضابطهم:طوّقوا المكان، سدّوا منافذه، لن يفلتا من قبضتنا، وقتها كانت سيارة الإسعاف تنقل الجرحى، إنّ أصواتًا تتعالى محدثة هرجًا.

-منهم من قال:إنّهم الفلاقة، قطاع الطرق، فتّشوا الأمكنة، لاتتركوا نقطة واحدة، إنّهما هنا، لن يقدرا على الهرب، من هنا لا من هناك، جرى العسكر في كلّ الاتجاهات، قدّامهم كلابهم ولكنهم لم يعثروا عليهما وكأن الأرض ابتلعتهما

- قال ضابط آخر لا شيء ينبئ بأنهما هنا..

– أومأ له برأسه وكأن شيئا بينهما.

– تجمّع العسكر عند مفترق الطّرق ثم غابوا عبر ضفاف الوادي، ولم يعد المرء يسمع إلا نباح الكلاب التي لم تهدأ لحظة وكأنّ رائحة الفدائيين عالقة بمسارب القرية.

–همس جنديّ في أذن جندي آخر:أيّ مسلك سلكاه.

–أو تعتقد كنت معهما.

–صاح آخر:هل رأيتما شيئا؟.

–لم نرهما.

ابحثوا في كلّ مكان، حتى تعثروا عليهما، مضى وقت طويل وهم يفتشون ولكن لاشيء هناك.

–قال ضابط:اليوم أو غدا.

–أجابه آخر : oui

ثم عادوا خائبين.

– نطق آخر :لقد تمكنا أن ينفذا عمليتهما بنجاح وهذا ليس معناه نهايتنا، إنّي متأكد بأنّهما مازالا عبر هذه المسارب والفتحات المؤديّة للجبل. ردّ ثالثهم ربّما امتطيا قاربا أليست القرية مطلّة على البحر أو ربّما تموّها ومن يدري هكذا قال، ثمّ استطرد في كلامه إنّه هو، هو لا أحد غيره لقد عاش معنا وعاشرنا، وركب قواربنا وقرع الكأس معنا حدّ الثمالة، نحن المخطئون كيف نثق في رجل خان وطنه فكيف لا يخوننا، لولا هذه العيون التي زرعوها بيننا لما أمكنهم ذلك.

أجابه آخر :صدقت.

–أي نعم وإلا لماذا اختار عشيّة السبت ولمَ لم يأتيا في وقت آخر، هذا دليل قاطع أنّه يعرف خرائبنا وما نمارسه من تصرفات، هو يعرف جيدا إنّها عطلة

زهو ومرح وكأس تقرع وموسيقى صاخبة ورقصات نسوان، لهذا نفذا عمليتهما بنجاح ثمّ لاذا بالفرار ولكن ما يحيرني يا صاح! أولم يرهما أحد، أم أنهما امتطيا سيارة ومن أين لهما هذا، لقد بدأت أشك في كلّ شيء.

-لا تذهب بعيدا فالأمر بسيط.

-كيف؟

-أنت تعرف أنّ مسارب القرية مفتوحة على كلّ جهاتها، وهو ابن القرية ويعرف خرائبها، وأكثر من هذا ربّما مازالا هنا، أو ربما احتميا في الفيلا ذاتها.

-أنت مجنون!

-المجنون من لا يعتقد هذا. -لقد بدأت تهذي يا صاح أو أنّ الخرف خرّب ذاكرتك مبكرا، أو قد تكون هواجس الحرب هزّت أعصابك فصرت تفكّر تفكيرًا خرافيًّا.

- حينها قاطعهما عسكري آخر:لن يكون إلا هو....

-من؟.

- الذي أُتقيد من منزله؟

-هو، هو لا يوجد غيره ولكن! -ماذا؟! -كيف أمكنه ذلك؟

-كل شيء يمكن تحقيقه ما دامت هناك إرادة. -أولم يخف من الموت؟.

-ردّ جندي وهو يفتح علبة سردين :ولمَ الخوف من الموت وهو أصلا ميت.

-لماذا فعلها إذن؟.

-قصد ترميم ماضيه، والانسجام مع ذاته ومعرفة حاضره المجهول.

-ومتى كان له ماض حتى يتصالح مع حاضره. -هو لا ماض له ولم يأت إلى هنا من أجل ترميمه.

-لماذا فعلها إذن؟

-ليبني مستقبله وليشبع حقده في حناياه ولأنّ نفسه تحبّ الألم فهو لا يتصوّر معيشة دون ألم، صار الألم جزءا منه. -أو تعتقد أنّه مازال حيًّا يرزق.

-وما الفائدة من قتله؟ -قتله لن يضيف للعبة شيئا.

-بجد؟ -وما غايتهم منه الآن؟ -استثماره.

-في ماذا؟

-فيم يفيد ثورتهم. -كيف يثقون في من خانهم.

-القتل لمجرد القتل يضرّهم أكثر مما يخدمهم. -كن ذكيًّا.

- إنّه هو..لا محالة؟

- كلا..

- من؟

- أنسيته؟.

وهنا خاطب الضابط عساكره وقد اعتلت وجهه حمرة، حاسبوني بهما الليلة أو غدا، لا بد من القبض عليهما، لا تفوّتوا الفرصة، حاصروهم، فالوضع ينذر بوقوع ضحايا أكثر، وهذا كلّه ناتج عن الثقة العمياء، الثقة العمياء تورّط صاحبها في متاهات يصعب الخروج منها وها نحن قد وقعنا فيها لا يحمد عقباه، لا ثقة بعد اليوم، الثقة في الوثيقة، هذا ما ينصّ عليه القانون ومن طبق القانون لن يُخدع.لابد من تفتيش أيّ شخص يدخل القرية، لا أمان في ثلاثة :الإنسان والبحر والزمان، لدينا إمكانات مادية لابد من تسخيرها، الحرب خداع، وخاصة ونحن في بلد يصعب فهم عقلية شعبه، قد يعمل معك في حظيرةبلدية وهو يتعامل مع الفلاقة، كلّهم فلاقة على فلسفة جدهم، لذا لابد من اليقظة، الحيطة والحذر، فالأمر خطير ومفتوح على احتمالات خطرة اليوم معك وغدا ينقلب ضدك، الحذر، الحذر.هكذا خاطب الضابط عساكره وهم

يحيطون به داخل ساحة الثكنة، هذه السّاحة التي حشد فيها وحدة برمّتهاعلى مختلف جنسيات أقحموافي لعبة دنيئة، جيء بهم غصبا عنهم

-قال عسكريّ مخاطبًا جنديًّا آخر:الجنديّ مأمور أو ليس كذلك؟من لديه اعتراض يرفع أصبعه؟. -سكت العسكر ولم يتفوه فيهم أحد. ردّ الضابط لم أسمع منكم جوابًا أأنتم خائفون أم متحفظون؟ -إذن متى تتلقوا أمرا تلبوا الطلب، هذه طبيعة الجيش، وفجأة أطلت معمّرة من الشرّفة وهي تصرخ قائلة :لم تعد الحياة تطاق أمام هؤلاء الإرهابيين، القتلة إنّ لم تقضوا عليهم حياتنا في خطر، هؤلاء لا ينامون ولا يتركوننا ننام.مالكم ساكتون أو حتى يقضى علينا جميعا؟، لعمري ما رأيت هذا في حياتي!

-أومأ الضابط برأسه مجيبًا :oui madameثمّ واصلت حديثها:حياتهم مقلوبة رأسا على عقب، ليلهم نهار ونهارهم ليل، ولسنا ندري كيف يفكّرون؟ وفيما يفكّرون؟وماذا يريدون منا وأكثر من هذا كيف تمكّنا من الوصول إلى هذا الملهى؟وأين كان حرّاس مداخل القرية، ألا توجد بوابات؟وما جدوى من هذه الحراسة إذن؟ أم كان الحرّاس سكارى حدّ الثمالة، وهم على دراية بأنّ عيونهم هنا، يأكلون الخبز معنا أليس كذلك؟.عضّ الضابط على شفته السفلى قائلا :

معك الحقّ، لن يفلتا من قبضتنا.

بعدما فعلاها وتركوهم عائمين في دمائهم.-طبيعة الحرب هكذا- ma ame- -هل قبضتم عليهم؟ - لم نقبض عليهم بعد.

-ومتى...

- هذا الأمر يخصنا.

-معنى هذا إلى أن يفعلوا فينا ما يريدون.

-لا تقلقي سيّدتي نحن بصدد البحث عنهم -معنى ذلك!

-ماذا؟.

-إذا شاب الغراب!.

-ما فهمتش!

- ستفهمين قضيّة وقت فقط، وإذا كنا واقعيين سيّدتيّ لا توجد حرب نظيفة، أو حرب مؤسسة على قوانين، إنّ القيم والمبادئ لا معنى لها في زمن النّار والرّصاص، هذه هي الحرب لا تفسير للحرب فهي كالحبّ تمامًا لا معنى له خارج المكتوب، كلّ النّاس معنيون ولا أحد يفلت من وجع الحرب، وما يترتّب عنها من مآسي، وهذا طبيعي في نظر البحر، لا فرق في نظر البحر بين موت قطة وموت إنسان، هي الحرب هكذا منذ أن خلق البشر والحياة صراع وعلى هذا الهدوء الهدوء.

- معنى هذا...

- كونوا أكثر يقظة..دمهم لن يذهب هدرا يا امرأة هكذا ختم القائد كلامه وهو يشير إلى الضبّاط بالاستعداد لأيّة مهمة ولم تمرّ دقائق حتى جهّز كلّ ضابط فرقته، ثم أخذوا الطريق وكلّهم عزم وإصرار على ملاحقتهما، والثأرلكلّ من سقط في الحانة أو جُرح.قال قائدهم :حاسبوني بهما اللّيلة لا تفوّتوا الفرصة، مردّدا:إيّاكم والتخاذل.الحيطة والحذر، مجرد خطأ صغير سيكلفنا خسائر كبيرة أفهمتم؟، تحرّكوا الآن، أراكم بخير. وقتها كان اللّيل يسربل جنابات القرية ولم يعد المرء يسمع إلا نباح كلاب آكلة بعضها بعضا، مسارب القرية تمّ التحكم فيها وأوصدت على آخرها واختفى كحل القرية وانتشر العسكر انتشارًا مخيفًا، عساكر على اختلاف قاماتهم وبشرتهم، عيون زرقاء، سوداء، بنية، إنّ الإنسان لينسى، منهم من توغلوا في المشتى ومنهم

من بقوا يراقبونها عن بعد بمنظار"جيمال 'مترصدين كل حركة تصدر من قبل فلاق في الغابة أو امرأة أملت عليها الحاجة أن تخرج من كوخها، وانفلق الصبح وبزغت الشّمس دافئة وبدأ الأطفال يقفزون إلى الخارج منهم من جرّ بقرته ومنهم من عاد على عاقبته ومنهم من بدأ يمارس لعبته مختلسًا النظر من حين لآخر، إنّ نظراتهم قلقة، توحي بأنّ هناك شيء حدث في القرية والحق بالعدوّ خسائر وإلا ما سرّ وجودهم هنا، لقد فهم الأطفال أشياء ولكنهم عن جهل بما جرى لهذا هم يترقبون كلّ حركة تصدر عن جندي ما، هناك في الجهة المقابلة أطفال يلعبون، يصرخون، عسكريّ يقترب من مساحة لعبهم مشيرًا بسبابته اليمنى مناديًا:أيها كفوا عن اللعب واقتربوا مني هناك أشياء تخصكم، هيا كفوا وتعالوا واحدا واحدا وإلا لن أعطيكم شيئا واقترب الأطفال وبدأ العسكري يلعب على عقولهم مغريّا إيّاهم بقطع شكولاطة والكاكاو وقطع جبن لمن يشي بخبر ما عن مكان تواجد الفلاّقة ولكن الأطفال بقوا ينظرون إليه في دهشة وحيرة

-أخرج العسكري علب سردين مع قطع من الجبن ثم قدمها لطفل وهو يمرّر يده على شعر رأسه سائلا إيّاه:-ما اسمك؟

--نوّار.

- كم عمرك؟

- لا أعرف -ماذا يعمل أبوك؟

-قتلتموه ما اسمه؟

-لا أعرف.

أراد الجنديّ التقرب إليه أكثر ولكن الطفل رمى ما أعطاه، فهمّ العسكري بضربه، وهنا صاح الضابط حذار واقترب من الجندي فأخذ ينظر إليه نظرة

قاسية فدهش الجندي لردّ الفعل ثمّ سأل الجندي في لهجة كأنّها البوق:ما به؟
-لست ادري، كلّ ما في الأمر إني سألته عن أبيه.
-ماذا قلت له بالحرف الواحد؟ -ماذا يعمل أبوك؟
-بم أجابك؟
-قتلتموه.
-وهنا أومأ الضابط برأسه مجيبا الجندي أنت من أخطأت في حقه، لقد جرحت مشاعره، سمعهما ملازم آخر فاقترب منهما ضاحكا مخاطبا ضابطه قائلا: كلّهم فلاقة، هؤلاء فلاقة صغار من صغيرهم إلى كبيرهم الذي علمهم الصمت والصمت حكمة، وماذا يقول لك وقد وعدته أمّه أن يلجم لسانه لتعطيه بيضة عند رجوعه مساء، وفي هذه الحالة لابد من قتل حتى دجاجاتهم. ضحك الضابط ضحكات.
-كلهم يعملون لصالح الفلاقة لذا أقول لك صراحة لا ينفع معهم إلا الموس والكابوس، وما يقدمونه من خدمات يعجز عنها البرّاحون ورجال المخابرات، واصل تفتيشك من هنا لا من هناك.لابد أن تفتّشوا أكواخهم المنتشرة على سفوح الجبال، ربّما لجآ إلى كوخ ما، اقلبوها رأسًا على عقب، ولا تدخروا جهدا، ولا تأخذكم بهم رأفة، كلهم قطاع، فلاقة على فلسفة جدّهم.
-قال ضابط وهو يخرج سيجارته :c'est vrai.
-نطق آخر، إن لم يكونا هنا، فأين اختفيا؟
-أجابه:ربّما تسربا عبر قارب، أو لم يكن معنا؟.
-هذا الذي يربكني..
-وهل رأيتموه؟
-لن يشاركه أحد.

-كيف ذلك؟

-هو من يعرف أسرارنا.

-المجرم بريء حتى تثبت إدانته.

-ولكن من كانت جنبه.

-امرأة في العقد الثّاني.

-ولكن كيف تمكنا أن يدخلا الملهى وكم نحن سذج.

-الحيطة والحذر وإلا مصيرنا.....

-ماذا؟

-القتل..إنّ جغرافية المنطقة وتضاريسها مكنتهما من تنفيذ هذا، هذا عامل آخر يحسب لهم، جبال سدّات ليست سهلة، مسالكها وعرة، والذي لا يعرف مساربها يضيع نهارًا وربّما يدخل من جهة فيخرج من جهة أخرى، غابة متربعة على مساحة كبيرة، كلها أشجار متداخلة الأغصان، مشرفة على القرية وما إن تخرج شاحنة ما حتى ينكشف أمرها.

-معنى ذلك.

-لا شيء.

-فهمت.

-لن تفهم شيئا، الأمور ليست كما تتصوّرها.

-و الحلّ.

-صبرا.

-كيف؟

-فجرا نكون قد وصلنا.

-معنى آخر.

-فهمت.

-لا. لن تقدر على فكّ اللغز الأزرق.

-لغز أزرق.

-نعم، بما فيهم نساؤهم.

-هل أنت على علم؟

-لن يكون هناك فدائي أن لم تكن امرأة معه.

-يعني..

-نعم، ليس بمستعبد.

-هي التي توغلت ودخلت الملهى، المرأة لا تلفت الانتباه وأكثر من هذا هناك من هو مصاب بعقد جنسيّة، نسوانجي، المرأة تضّفي على المكان نكهة أخرى، وربما تنال إعجاب حارس، أو قد تدغدغ مشاعره وهنا لا ينتبه إلى ما تحمله تحت الحائك، جلّ العمليات التي نفذت كانت من قبل فتيات، تجدها تدخل ملهى دون أن تثير انتباه شخص ما. لماذا؟.ببساطة هي نقطة ضعف عند الرجل وقد تبدي له ابتسامة تجعله ينسى نفسه وفي هذه الحالة قتلتنا جميعًا "يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به...وهن أضعف خلق الله إنسانا"

ومهما يكن هذه هي الحرب كل النّاس يقحمون في أروقتها، أروقتها كثيرة.

-وهل هناك من تتبنى العملية.

-لم يتبنها لحد الآن أحد.

-لماذا؟.

-الأمر ليس كما تتصوّره.

-وهل رأيتها؟

-شوهدت.

-هكذا يقولون.

-امرأة لم تتجاوز العقد الثاني.

-ماذا كانت بحوزتها؟

-قفة.

-لماذا لم يتم تفتيشها؟.

-هذه القطّرة التي أفاضت الكأس.

-ربّما تحرش بها أو أثارت إعجابه.

-ممكن.

-ماذا؟

-ربما كانوا في حالة سكر..أليست هذه العشيةsamedi soir

- samedi soir -الكلّ في حالة سكر.

-ألا تعرف ذلك؟.

-هما يعرفان هذا، وعلى هذا نجحا في اختيار الوقت والمكان معًا.

- هو، هو

-لا تذهب بعيدًا.

-هذه هي الحقيقة..

- ثمّ التفت الضابط إلى مرافق له وما العمل إذن، علينا أن نخرج سكان المشتى ونلقي عليهم كلمات لعل وعسى يعودون إلى رشدهم وينتبهون إلى أنفسهم فكرة صائبة وهنا أومأ الضابط برأسه وأمر العسكر بحشد سكان المشتى رجالا ونساء وبعدها اعتلى ربوة وراح يملي عليهم بريده قائلا وفي نبرة حادة :لا يهمّ، ضحايا الحرب كثيرون والنّاس كلهم معنيون ولن يستثنى منكم أحد.

أيها النّاس أنّ ما يصيبنا يصيبكم، وجعنا وجعكم، وألمنا ألمكم، لا تدخروا جهدا، إذا تعاونتم معنا في مقدورنا أن نقضي على هؤلاء الفلاقة الذين حوّلوا حياتكم إلى جحيم، كونوا أكثر يقظة وإذا رأيتموهم بلّغوا عنهم وستجدوننا في الخدمة، حياتكم أملنا وسرّ وجودنا كونوا معنا وإن لم تكونوا فأنتم ضدّنا.أيّها النّاس ما تفكرون فيه خطأ، وما تقومون به خطأ وعلى هذا عودوا إلى رشدكم وفكّروا في مصلحة أطفالكم ومستقبلهم. أيّها النّاس اسمعوني جيدا، افتحوا آذانكم ولا تفوتوا الفرصة، إنّها فرصة لا تعوّض ولن تمنح لكم مرّة أخرى، لذا لابد أن تفهمونيّ جيدا، هل فهمتم؟.لزم الضابط الصمت وهو ينظر إليهم مجيبا:لم أسمع جوابكم على هذا وذاك أقول لكم إنّكم تقامرون وتغامرون بأبنائكم وديياركم وحياتكم، لا تتعاونوا مع هؤلاء الفلاّقة، قطّاع الطرق، لن يفلتوا من قبضتنا طال الزمن أم قصر.أيّها النّاس إنّ فرنسا تمثل أثينا مهمتها إضاءة العالم بنورها السّرمدي لا تذخروا جهدا نحن في خدمتكم، سننير طريقهم ولن تجوعوا أبدا، ولن يركب الفقر ظهوركم، كونوا معنا فقط.

أيّها النّاس هؤلاء أخطئوافي حقّ أنفسهم وفي حقكم جميعا لذا عليكم أن تنتبهوا قليلا إلى ما يحيط بكم كونوا من الرجال الواقفين وسنريهم مالم يُر أيّها الناس: فكروا في مستقبل أبنائكم، أبناؤكم لابد أن يدخلوا المدرسة لأنهم يمثلون المستقبل لا تفوّتوا الفرصة، إنّها من ذهب، على هذا نحن جئنا من أجلكم، من أجل إخراجكم من الظلمات إلى النور، فأنا في انتظار موقفكم تكلموا لا تخافوا ولكن لا شيء يذكر وأدرك فعلا انّه ينفخ في الهواء.

أيها النّاس لم أسمع صوتكم، نحن هنا، لقد جئنا لخدمتكم، لا تقلقوا أبدا، راجعوا أنفسكم وتراجعوا عن موقفكم هذا ولسوف تجدون كلّ شيء أمامكم، لا تضيّعوا الفرصة واعلموا أنّ سكوتكم هذا سيورّطكم في متاهات لن تجدوا

لها مخرجا، فالسكوت لم يعد علامة الرضا، تكلموا قبل أن يضيع الوقت وتفلت الأشياء من بين أيديكم وتكبر وفي هذه الحالة لن تجدوا حلاّ آخر.أيها الناس :إنّ حياتكم لن تعرف الأمن والآمان والهدوء والاستقرار مادام هناك من يمارس الإرهاب ويقطع عنكم المؤونة، حياة أطفالكم في خطر يا ناس فيقوا قالها حركي، لا تخافوا وكونوا مثلي فالموت حالة مجازية، وإنّكم لميتون اليوم أو غدا، الحيطة والحذر والأجدر أن تنظّموا أنفسكم وتشكلوا تنظيمًا يقيكم شرّهم ويؤمن حياتكم، فالعملية بسيطة بلغوا عنهم فقط متى حلّوا بمشتى أو في نقطة منا، فإنّ فرنسا واقفة جنبكم دفاعًا عن أدميتكم وحياتكم وكرامتكم وان أردتم شيئًا آخر فكل شيء في متناولكم وتحت تصرفكم متى اتفقتم لا تتأخروا فأملنا فيكم كبير، نحن هنا في خدمتكم، خدمتكم أملنا وسرّ وجودنا، لا تفوّتوا الفرصة، إنّها فرصتكم الأخيرة قبل أن نقيم عرس الذئب على جماجمكم الصغيرة، وهنا التفت الضابط محييا الحركي مستطردا في كلامه كونوا مثله لا تخافوا الموت واحد، عندها نظر السّكان إلى عيون بعضكم بعضا، إنّ شيئا ما ارتسم على تقاسيم وجوههم، شيء من الغضب، شيء من التحدي حينها انتفض مزارع صارخا: هذه الأرض أرضنا ولن نسمح في حفنة تراب منها.

– قال الضابط :لم تقل شيئا أيها المزارع لذا أؤكد لك جازمًا بأنّ هذه الأرض لا أهل لها لذا كونوا أكثر يقظة.

–وهنا صرخ الجميع نحن أهل هذه الأرض، هذه الأرض جلد عظمنا من ماسينيسا إلى يوغرطة إلى الأمير عبد القادر إلى ابن بأديس إلى يومنا هذا ولن نتخلى عنها ولو قتلنا على آخرنا. قال آخر: أرجو فقط أن تتفهموا الوضع وتفهموننا ثم غابوا عن الأنظار. ولم يمض وقت طويل حتى تناءى إلى

مسمع النّاس صوت ينبعث من مغارة ليست ببعيدة عنهم، فانتابتهم هواجس كثيرة لم يفهموا كنهها أو فكّ لغزها وخلصوا إلى نتيجة قد يكون المكان مسكونا وخاصة أنّهم يعلمون علم اليقين أنّ امرأة قتلت هناك بعد أن تمّ اغتصابها ومرّ عليها أكثر من تسعة جنود ولما اشبعوا غريزتهم تم رميها بالرصاص ومنذ ذلك الوقت والمكان عامر وما من شخص يمرّ من هناك إلا وتناءى إلى مسمعه صوت امرأة تدغدغ عواطف طفلها وقد تتراءى امرأة جالسة تمشط شعرها ثمّ تختفي عن الأنظار و لكن الآن هذا الصوت صوت رجل جريح يا إلهي ماذا يجري فأيقن النّاس أنّ في الأمر شيئا، وأن المكان استحال إلى مغارة واستمر الحوار ولم ينقطع وأمام هذا هاجس الخوف انسحبوا زُرفات ووحدانا. -قال جندي مخاطبا الجريح بعد أن مدّ برأسه إلى الخارج لا شيء هناك لقد ذهبوا فلنغتنم الفرصة ولنذهب -إلى أين؟

-إلى اقرب مركز.

-لا وجود له.

-هيا هيا، جرحك ينزف دما.

-وهل هناك طبيب؟.

-هيا، ولا تضيع وقتك.

-كلّ شيء موجود وإن لم يكن موجودا لأوجدناه.

-ابتسم عمار ابتسامة بلهاء.

-قلت لك هيا.-

ولكن أين المركز؟

-لا تقلق ليس ببعيد.

-وهل تعرفهم؟

-ضحك عبود.

-هل جاؤوا من بلاد غريبة؟

-كلّنا إخوة وخاوة.

-ومن الطبيب؟

- أنت فدائي جريح، لا تتدخل في أشياء لا تعنيك.

-ألم تسمع بـ...

-من؟..

-فلانة...سمعت بها وأعرفها.

-تعرفها منذ متى؟

-منذ التحاقي بالجبل.

-وكيف؟

-حادثة.....

-من؟

-وهل كنت حاضرا؟

-أي نعم.

-غريب أمرها.

-لا غرابة فيه، كلّ ما فيه إنّي ساعدتهم في نقلها إلى المركز.

-على متن ماذا؟

-على ظهر حصان ومن أين جئت به؟

-من مزرعة.

-وكيف؟.

٧

لما خرج المعمّر ممتطيا حصانه، كنت قد رمقته عن بعد، تتبعت خطواته، رغم أنني كنت على علم بأنه يرتاد هذا الملهى الصغير، إنها حانة صغيرة متربعة على مساحة صغيرة متواجدة عند مدخل قرية بازول، حانة يلتقي فيها المعمّرون وكلّهم على علاقة فيما بينهم مبنية على تبادل المنافع وقضاء الحاجة هذه هي عادتهم عند اللقاء، إنهم يلتقون هنا كلما حان وقت الظهيرة.كان يمتطي حصانه الأدهم، بعد أن يلقي نظرة على مزرعته المترامية الأطراف مراقبًا عماله وأشجار كرومها ثمّ يعرّج على هذا الملهى ليشرب جعته.

-معنى هذا أنّه صاحب مزرعة.

-أيّ نعم أنه صاحب مزرعة تتربع على مساحة كبيرة وقد خصصها كلها لزراعة الكروم، الكروم هنا تأتي أكلها بعد حين وإنتاجها وافر وهذا راجع لطبيعة تربة المزرعة، تربتها فيضية خصبة يميل لونها إلى الاحمرار وهي مشرفة على شاطئ البحر، بحر يمدّه بحر، قرية رائعة فعلا، ومما زاد في روعة جمالها موقعها الاستراتيجي، إنّها قرية بمحاذاة البحر، طيور نوارس تحطّ وتطير ملتقطة رزقها، لقد استغل فعلا بساطة سكان المنطقة، استغلهم استغلالا فظيعًا، ينهضون فجرا ليعودوا بعد غروب الشمس من أجل فرنكات لا تسدّ

حتى رمق جوعهم ولم يفلت من بطشهم حتى الأطفال القصر غصبًا عنهم يعملون منهم اليتم والقصر والهجل والأرامل، مزارع ومطاحن وعصّارات لعصر العنب وتحويله إلى خمر، ثلاث إلى أربع عصّارات وكأنّ هذا الوطن وطنهم، أو جزء منه.إنّهم يعتقدون سذاجة أنّ هذا الوطن امتداد لوطنهملذا اغتصبوا أرضنا أرض الأجداد الذين هم اليوم تراب، إنّهم شهداء الحرية والوطن الذين صاروا اليوم ترابا، هؤلاء لم يمدّوا أيديهم على ما ليس لهم. إنّهم شهداء الحرية والوطن، هؤلاء أدوا واجبهم كما ينبغي أن يؤدى، لأنّ حلمهم الوحيد أن يجلس أبناء الجزائر على مقاعد الدراسة، ويتصافحوا صباحا، ويقفوا أمام سارية علم واحدة، وينشدوا "بلادي كم نحبّك".. كلّ ذلك ليكبر حلمهم كبر الجزائر في عيون أعدائها.. هؤلاء من حقنا أن نحيي ذكراهم ونذكرهم بخير، نحتفي ونعتز بهم ونستلهم من مسارهم عبرا تصقل وجداننا، وتنير طريق مستقبلنا، لأنّه لا خير يرجى من أمة لا تحترم شهداءها. هؤلاء الذين رحلوا ولم يقولوا شيئًا عن العودة، وإنّما تعالت صرخاتهم "نحن لا نستسلم ننتصر أو نستشهد ولا نموت". كلّ ذلك من أجل أن تحرّر الجزائر ويرفرف علمها في المحافل الدولية وتحتل مكانة تحت الشمس مثل هذه القيم لا يجب أن ندوس عليها بأقدامنا، لأنّها اعترافا ضمنيا بنكران الجميل ودفنه في حلق الطيور.، ومهما حاولنا أن ننسى أو نتناسى فإنّ الشهيد لا يموت، إنّها أعلى درجة الخلود مصداقًا لقوله تعالى "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل اللهّ أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون".. فهم كذلك يحبّون الحياة ولكن آثروا التضحية على الحياة الدنيا. هؤلاء ذاكرة جماعية لا تمحى وإلى الأبد وأكثر من هذا لا يحق لنا أن نقفز على تضحياتهم لأنها موقّعة بدماء طاهرة على أرض طهّرها الأجداد. إنّهم فعلا قامات وأشجار تشدّ الأجيال جيلا فجيلا. فرنسا

ارتكبت مجازرَ جماعية لا تُغتفر في حقّ شعب لا ذنب له عدا تشبثه بأرضه ووجوده عليها، لماذا؟ لينمي الانتماء ويشد أبناء الوطن الواحد ولقد صدق الأعرابي قديما لما سئل عن الوطنية: "كيف تصنع في البادية إذا اشتد القيظ وانتعل كلّ شيء ظلّه؟ قال: وهل العيش إلا ذاك؟ يمشي أحدنا ميلا فيرفض عرقا ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه ويجلس في فيئه يكتال الريح، فكأنّه في إيوان كسرى.عظيم صرت تفهم في أمور أكبر منك، بل أكثر من هذا لقد جاءوا ليوسّعوا رقعتهم الجغرافية وكأنّ الأرض ضاقت بهم، إنّه استيطان، هذا ليس احتلالا، كلّ هذا قصد الاستثمار فيها واستنزاف غلال شعبها نازعين إياها من أصحابها بعد أن طردوهم إلى الجبال واستولوا على الأراضي الخصبة.

-عظيم!

-وماذا بعد؟

تتبعت خطواته خطوة خطوة، ولّما ولج الملهى عرّجت من الجهة الخلفيّة حيث ربط حصانه إلى وتد، التفت يمنة ويسرى لم أرَ شيئًا كلهم داخل الملهى كؤوس تقرع موسيقى دعة تنبعث هادئة، مددت يدي لأفّكّ حبل الحصان الذي شدّه إلى وتد صلب صراحة ارتعشت يداي في بداية الأمر رغم إنّي خالطته كثيرًا، عاشرته وهو يعرفني ويثق فيّ ثقة عمياء، لقد قال لي:ذات مساء بعد أن قعد بجانبي، وأخذ يربت على كتفي :دعك من كل عمل سياسيّ، فالسيّاسة فراغات ودوائر مغلقة، فلا داعي أن تحشر أنفك، اعمل عملك وعش حياتك ولا تشغل نفسك بأشياء لا تدخل في جيبك فرنكًا واحدًا، أنت عامل أجيرjournalierولن تكون شيئا آخر، أو غير ذلك، وقتها كان المطر يتساقط رذاذا، نسمات هواء منعشة تنبعث من البحر، منظر خلاب فعلا إنّها بازول المنطقة المطلّة على البحر، اسمها بربري أمازيغي يعني في اللغة

الأمازيغيةالمنطقة المرتفعة، وفعلا هي مرتفعة على سطح البحر، إنّها بازول التي عرفت مسقط رأسيّ وعرفت فيها معنى الوجع، عشرون سنة وأنا أجوب مزارعها، عرفت من خلالها هذا المعمّر الذي كان يميل إلي ويثق فيّ ثقة كبيرة، لقد قال لي بالحرف الواحد أنت رجل ثقة فكن في مستوى ثقتي بك، نظرت إليه متأملا تقاسيم وجهه فلم أر إلا حمرة تعلو وجهه، وحمّالة كان يشدّ بها سرواله إلى كتفيه، فأضحك بصمت وكلما رآني إلا وسألني عن سرّ ضحكتي، هل اكتشفت شيئًا جديدًا؟.

أجيبه بكل بساطة حمّالة سروالك سيّدي!

.–مابه؟ –إذا كان هناك شيء يستحق أن تحتفي به هو هذه الحمّالة التي تشدّ بها سروالك، وهنا ابتسم سائلا :هل أعجبتك؟.

–أومأت له: كلا يا سيّدي.

–فأردف معقبًا :هل أتيك بواحدة؟

–ضحكت مجيبًا :لمّا يكون لي سروال!

–فنظر للتو فلم ير إلا بلوزة سوداء وقد أتى عليها حين من الدهر، وشاشية تآكلت حواشيها، ثمّ تنهد قائلا من يراك هكذا يعتقد أنّك شيخ تقاسمته المحن وطوحت به الريح، طأطأ رأسه وكأنه أحسّ بوخز ضمير، ولم يمض وقت طويل حتى أقبلت زوجته وهي تحمل صينية عليها إبريق حليب وحلوى وفناجين ثم وضعتها قدامنا، فعلا امرأة جميلة وكريمة.

–معنى هذا عملت في مزرعته jardinier

–أيّ نعم كنت أعتني بحديقته، أقلم أغصانها وأسقي أزهارها، وأتفقد ماله في استطبلاته، أقدم لها العلف من حين لآخر، وما تحتاجه من ماء، ثلاث بقرات يدرّن أكثر من ستين لترا حليبا، واحدة تساوي عشر بقرات من أبقارنا،

وهذا لا يهمنا لأنّ القضيّة متعلّقة بما يقدمه من علف وأشياء أخرى بغض النّظر عن مزرعته الخضراء التي يسرح فيها ماله، أعلف تحلب، ولكن شرّ البلية ما يضحك فلقد حكى لي قصّة رجل فلاح لمّا سمع بما تذره هذه البقرات من حليب ألحّ عليه أن يبيع له واحدة فأجابه بالحرف الواحد أنّك لن تقّدر عليها، فتربية الأبقار تتطلب جهدا وعناية ومزرعة ولكن الفلاح أصرّ على أن يبيع له واحدة وأمام هذا الإصرار والتوسّل والتودّد والإلحاح فلم يجد المعمّر حيلة عدا أن يبيع له واحدة ففرح الفلاح بها فرحًا كبيرًا وأخذ يتباهى بها أمام النّاس ولم يمر يوم واحد حتى بدأ حليبها يتناقص شيئًا فشيئا، فمن عشرين لترا إلى خمسة عشر لترا إلى أحد عشر لترا إلى خمسة لترات إلى لتر واحد فاشتكى إلى بائعها مردّدا قائلا في نبرة حادة: إنك خدعتني ضحك المعمّر مستهزئًا صارخًا متعجبًا :نعم لقد بعت لك البقرة ولكن لم أبعك المزرعة!؟ كم مرّة قلت لك أنّك لن تقدر على علفها ولكنّك أصررت على أنّ أبيعها لك وكلّ ما أقدمه لك من خدمة مراعاة فقط لوضعك الاجتماعي ولمعطفك، كان معطفه يميل إلى الاصفرار، لقد تقادم بفعل أزمنة وبدأ لونه يتلاشى، حتى أزراره مسها القدم ولم يبق منها إلا زر واحد من مجموعة أزرار وكأنها ترفض هذا الواقع المرّ المرير، لهذا أترجاك أنّ تعيد البقرة إلى مكانها وتقوم بخدمتها لمدة أسبوع واحد، تعلفها وتحلبها بيدك وسترى بأنّ المعمّر لم يخدعك، اتفقنا. –نعم –هذا ما حدث ولكن.

–ماذا؟.

لقد شعرت بقلق وأنا أفكّ حبل الحصان الذي شدّه بطريقة غريبة إلى الوتد، خفت أن يصهل فينكشف أمري وساعتها تكون نهايتي، نهايتي التي لم تخطر على بالي لحظة ولكن الحمد لله لم يتحرك الحصان وكأنّه يفتش عن حريته، بعدها

امتطيته ثم فررت هاربا..

-هذا رائع!.

-هذا الحصان سيقدم لنا خدمات كثيرة.

-ما فهمتش!

-سننقل البرّ والقمح والحنطة والجرحى وأشياء أخرى تليق بالمقام، كم نحن بحاجة ماسة إليه وهو أكثر من بندقية شكرا لك.

-لا شكر على واجب.

-الآن عرفتك.

-لكن؟.

-ماذا؟

-أو لم تسمع برجل اسمه التّهامي.

-لا يا سيدي. --تذكر جيدا ولا داعي للخوف.

- أنا لا يخوفني لا التّهامي ولا رجل آخر.

-إنّه هو من نفّذ عمليتنا الفدائية.

-بمفرده!

-كلا. -

هذا الذي فكرت فيه ولكن؟لقد أخبرتني بأنه كان خائنًا وألقيتم القبض عليه كيف استحال إلى رجل وطني، سبحان الله مغيّر الأحوال، من ظل يتتبع خطوات الأحرار ويقتل النّاس وييتم الأطفال ويخنق الفرحة في عيون الآخرين إلى رجل وطنيّ، شيء عجيب حقًّا، غريب أمرك يا دنيا.-هذه حقيقته.

-ربّما وخز ضميره هزّ مشاعره.

-ومن يدري؟لقد حدثني كيف أنّ العساكر هاجموا السّوق وأخذوه إلى

الثكنة وتبولوا عليه، وهناك ما هو أكثر وجعًا. -ماذا؟

-شيء يخدش الحياء -وهل لديه ما يستحي عليه -ثم همس في أذنه -يستحق أكثر من هذا، وهذا ما يحق في أمثال هؤلاء، إنّهم يستحقون أكثر من هذا، لا فرق عندي بين تخون وطنك أو أن تمدّ..... هو من كان وراء أرواح سقطت لا ذنب لها، أرواح طاهرة بريئة وبينما هما يتضاحكان إذ بوابل من الرصاص أعقبته كلمات الانسحاب، الانسحاب.

-ردّ القائد كلّ واحد يلزم مكانه.

-لم نقدر.

-العسكري من تحكم في نفسه، قف هناك لا تتحرك.

-لماذا؟

-لتعرف حجم وجودك.

-أجابه فدائيّ آخر وهل مازال فيه شيء؟.

-نعم، ولم لا؟

-لا أعتقد!

-لماذا؟

-لقد تكبّدنا هزيمة وخسرنا المعركة.

- لكن الحرب مستمرّة.

- قدرنا هي الحرب.

-و إلى الأبد.ما أنجزناه بفضل أطفال هذا الوطن، أبناء الجزائر، الأطفال يصنعون الفرحة والفرجة.

-لكنهم صغار!.

-هذا رأيك!.

-حينها لمح طفلا قادما وهو يحمل حزمة أرأيت؟!

-أي نعم!...

-وصل الطفل، أخذ نفسا ثم أردف يقول نحن أطفال صغار ونلعب بالنار.

-ربّت عبود على كتف الطفل، بكم نصنع الفرحة.

- هذا واجب.

-ولكن كيف تمكنت من ذلك؟!

-إنه شهر جويلية أليس كذلك، أنت تعرف هذا الشهر وما يتميز به من حرارة، فلقد كانت حرارة هذا اليوم حارة والشمس ترسل أشعتها تكاد تحرق وجه النّاس حتى الحيوانات ركنت إلى الأشجار بحثًا عن ظلّ يقيها شرّ الحرارة ورغم حرارتها فلقد أعطت للغدير نكهة تفتح شهيّة العوم.

-قال صاحبي يوم جميل للموت.

-بل للعوم!.

-للموت والعوم معًا.

-لم أفهم.

-ستفهم بعد لحظات.

-كيف ذلك؟

-سترى ما لم يخطر على بالك وما لم تره عيناك سيترجم إلى عملية فدائية.

-قلت له وأنا أعبث بماء النهر لم أفهم من كلامك شيئا. -لأنّك تتغابى.

-قال صاحبي أنظر هناك!

-رفعت رأسي رأيت جنديًّا قادمًا وهو يغني، ويصفّر.

-بعد حين سيرى ما لم يُر وسنرقص على جمجمته الصغيرة.

-الحيطة والحذر فقط وبعدها اختبأنا وراء أشجار اليفش وأخذنا نرقبه

فاتضح لنا جليّا أنّه كان في حالة سكر ولمّا دنا من الغدير توقف وأخذ ينظر في مناحيها وهو ينزع بذلته متأهبًا للعوم، تتبعنا حركاته عن كثب وبعدها اختمرت فكرة خطف رشاشه وبدلته، وصل العسكري وكلّه زهو وحبور، أدخل يده إلى جيب صداره مخرجًا سيجارة، أشعلها وأخذ يدخن نافثًا دخانها وما إن أنهى غوايته حتى بدا ينزع بدلته متحسسًا أعضاءه، آخذ حفنة ماء وراح يبلّل شعر رأسه وهو ينظر في كلّ اتجاه لم يرَ شيئا ثمّ صعد إلى ربوة محاذية للغدير وهو عارٍ، همست في أذن صاحبي سيعود عاريًا ولن يستره أحد وما إن غطس حتى قفزنا آخذين بذلته وسلاحه ثم لدنا بالفرار تجاه الغابة.

-ولدت المحزمة.

-ضحك الطفل ضحكات.

-قال عبود ماذا هناك؟

-ضحك عبود :رائع، ثم ماذا؟

-استولى محمد على رشاشه بينما أخذت أنا بذلته.

-ردّ عمار وأنا الآن فدائيّ!

-أنت لا قطعة سلاح لديك. لكنك صغير!

- وأنت لن تكون، فلا بذلة عسكرية لديك أجابه عبودالمشكلة ليست في البندقيّة ولا في البذلة العسكريّة فالقضية أكبر من هذه الأشياء، يكفيكما فخرًا قيامكما بمثل هذه العملية الفدائية. صرخ عمار معنى هذا أنا منذ الآن فدائي، أنا من خالطت ديار الغربة، أنا ابن الغربة كيف يتمكن مني ابن الرومية، دخلت عنابة وعمري لا يتجاوز أربع عشرة سنة، ذقت المرّ، والجوع والعريّ، لم تمدّ يد إلي، لم يعطني شخص فرنكا واحدًا، ثم يأتي هذا العسكري ليستحم في أرض أجدادي.

– ردّ صالح في حسرة :أنت على الأقل عرفت أمّك، أما أنا عرفت اليتم والتشرّد، رضعت من ثدي الهزيمة، غسّال صحون في مطاعم الكولون من بزوغ الفجر إلى غروب الشمس، غريب في مطاعم الآخرين، إنها حياة من تقطّعت بهم السّبل، لا عزّة ولا كرامة تنام في سطح كوخ تحتك تربض بهائم، صيرونا نعاجا في زريبة، يلعن بوها معيشة، الأطفال على مقاعد الدراسة يتعلمون شيئًا يفيدهم في حياتهم الخاصة والعامة ونحن لم نقرأ حرفًا، ضيعونا وضيّعوا مستقبل أطفالنا وبقينا نجري وراء همّ الدنيا ومن يجر لن يصل.

–سنصل يا صاح وترفرف راية الحرية ويعلو شأننا ويتعلم أطفالنا.

–ونحن؟.

–هذا قدرنا الذي لا مرّد له.

–ردّ صاحبه قدر أم أقدار؟.

–القدرمعروف ولكن ماذا تقصد بأقدار؟.

–أقدار أشياء تمّ فرضها علينا وأملتها معطيات عالميّة رغبة في توسيع الخريطة الجغرافية واستنزاف ثروات أرضنا.هذه فرنسا التي تدّعي أنها جاءت لتخرجنا من الظلمات إلى النور، فرنسا تقول أنها مصباح أثينا الذي سينير دروبنا الوعرة، أدخلتنا في نفق مظلم ومتاهة كبيرة وبينما هما يسلكان منعطفا إذا بهما أمام فدائيين، فصوّب الطاهر بندقيته، فانفجر رفيقه صارخا في وجه رفيقه، ضاحكا، ما بك يا الطاهر؟

–عسكريان.

–لا تخاف.

–كيف لا تخاف، الخوف حقّ مشروع.

– قل :الخوف يجرّي الرجال في الطرقات.!

-لكن الموقف حرج.
- أهذه الدرجة؟.
-بل أكثر.
-ضحك الفدائيّ.
-ردّ آخر :الموت يا خويا شيء والحياة شيء آخر.
-إنك تبالغ.
-ربّما أكثر.
-الرصاص لا يرحم أحدًا.
-لكن الحيطة واجبة.
-أنت خائف.
-لا.
-ماذا...؟!
-كيف.
-لا تدع الخوف يركبك.
-إنّها شموع تنير طريقنا.
-لم أفهم.
-الخوف إذا ركبك يقتلك.
-لكنهما صغيران!
-لا يوجد من هو صغير وكبير في نظر الثورة.
-صغيران وجاءا بما لم يأت به الكبار.
-انظر.
-ماذا؟

-بذلة ورشّاش.

-كيف هذا؟

-الفطنة وإلا.

- من أين؟

-صمت الفدائي.

-ردّالطاهرمعك الحق.

-قال عمر لكي نكون لابد من العمل الجماعي المنسق.

- ما فهمتش؟

-العمل الجماعي يقتضي مشاركة الجميع، كل واحد في مكانه وكل واحد وعمله وهكذا يبني الطائر عشّه، عناصر الطبيعة لابد أن تتفاعل من الحذاء إلى التاجر إلى كنّاس الأرصفة، هؤلاء كلّهم عيوننا التي لولاها لن نرى النور، الثورة استراتيجيات.

-لم أفهم شيئًا من كلامك. - الاستراتيجية وضع مجموعة أعمال لتحيق هدف واحد.

- نعم التفكير....

-ولها وجوه كثيرة أيضا، الكلّ في دائرة واحدة، ومركزها الشعب وقطرها الثّوار، حلقة متداخلة ومتشابكة لا تقدرعلى فكّها، جهاز مخابرتي معّقد وليس كلّ من يدخل إلى عند ملاخ أحذية هو بحاجة إلى حداء، قد لا يكون له حداء أصلا، وإنّما المهمة التي كلّف بها دفعت به أن ينتظر دوره الذي لا ولن يصل، وليكن في علمك أنّ الحداء يمثل دورة الحياة التي لابد أن تستمر ولكن أكثر النّاس لا ينتبهون.كلّ الأخبار تصبّ في هذا الحيز المكاني الضيق من أبسطها إلى أكثرها تعقيدًا، الحذاء رجل حكيم يحمل همومًا قاتلات وهو لا يهمه من يهزّه

القلق والغضب بحجة أن حداءه لم يتم إصلاحه بعد، هو رجل خبير والدنيا علّمته الحكمة والصبر على أذى النّاس وكلامهم، هو يعرف بأنهم لن يبنوا له قصرا ولن يحفروا له قبرا، عند الحذاء يا صاح ما يزن ذهب، هو يعرف أناسا على رجل واحدة وهناك من لا يملك رجلين، وهناك من يتمنى على الله فقط أن يقف على رجليه، ، ومنهم من لا رابعة له ومنهم من بترت رجله إلى أعلى الفخذ جراءانفجار قنبلة أو وجد في سوق عامرة، لا ذنب له إلا أن وجد في نقطة ما أو في مظاهرة، هناك منغُرس في جبهته مسمار، هناك من نُزع ثيابها ولم تجد ما تستر به جسدها، هناك من خرجت ولم تعود، ثمن الحرية غال يا صاح، هذا كل ما يفكر فيه الحذاء. الحذاء لا تحركه عاطفة رجل أو امرأة يبكي على حداءه، وهو يقلبه كما يقلب الطبيب طفلا ميتا، الحذاء لا يفرق بين وضعيّة حداء ووضع شعب، كلاهما في الهمّ سواء، وحدها الأحذية تعري أصحابها. هكذا قال إبراهيم الحذاء وهو يمسك بشفتيه مسمارا ويهجي عبارة كتبت على وريقة تعثرت بها أصابعه، جملة قصيرة تطلب منه أن يرصد تحركات العسكر عشية السبت، لقد قرأها وأعاد قراءتها ولم تحرك فيه شيئا بقدر ما عضّ على شفته السفلى والجالس قدّامه يعتقد أن مسمارًا الحق به ألما، رجل حكيم ولا بواكي له، وحده من يعرف كيف يتعاطى مع الحدث.لقد قرأها ابراهيم خلسة ثمّ بلع ريقه، لم ينبت ببنت شفة، وحده ابراهيم حمل همّه وتاه خلف نقاب الغضب، العبارة كتبت بخط كوفيّ عربيّ أصيل بحبر صمغ عبارة قصيرة وقصيرة جدّا، إبراهيم كن عند حسن الظن شكرا، رسالة ومن قرأها مات.

وقف إبراهيم تراءى له كنّاس أرصفة يجوب الطرقات وهو يدفع بلا بوبال قدّامه ببطء، لقد عرفه إبراهيم، إنه عمي العربيّ ثم هزّ رأسه مخاطبًا شخصا آخر، أنت لا تعرف الرجل، إنّه الدورة الدمويّة التي تعطى للحياة ديمومة

واستمراريّة ولولاه من ذا الذي يطعم الثوار ويموّلهم، عمله وضيع أليس كذلك؟ولكن ما يقوم به شيءيثير الدهشة، تجده يمر صبيحة كلّ فجر جديد ملتقطا كلّ ما يجده مرميّا في الطريق، يلتقطه بكلّ قوة وحكمة وصبر، خطواته متزنة، ووقفته، نظرته وهو يرنو إلى اللاشيء تجعلك تقرأ أشياء كثيرة، أشياء تجعلك تصاب بدهشة أو بصدمة، تقاسيم وجهه وهو يمرّ أمام التّجارتتغير وكأنّ الرجل يمرر كلمات يصعب فكّها أو قراءتها.إنّ إيماءة واحدة من قبل تاجر تجعله يهرول وكأنه نسي شيئا يأخذه ليرميه بعيدًا، إنّها علب سردين وجبن و مصابيح ليضعها في البوبالة ثم يمشي بها مشّية الفطن المترجل، من هناك، لا من هنا، من الجهة المقابلة إشارة أخرى وكأنّ التاجر يلومه معتقدًا سذاجة أنَّ الكنَّاس نسي أن يمرّ ليأخذ بقاياه، يجري العامل البسيط، يدخل التاجرمسرعًا مخرجًا ما كان أعدّه ليلة البارحة، ثم يرميها في البوبالة بطريقة عادية لا تثير الانتباه مردّدا قائلا:

أعانك الله يا أخيّ، الله يعطيك القوة والعافية يجرها عمي العربيّ بعيدا خارج القرية، حينها يكون الأطفال قد وصلوا وهم جاهزون لالتقاطها وأخذها إلى أقرب مركز.

-شيء غريب حقًّا.

-لا غرابة مع عميّ العربيّ؟

- ومن يكون هذا من خلق الله.

-كنّاس أرصفة.

-إيه أعرفه؟

-ولكن!

- ما يقدمه يعجز عنه الآخرون.

-من منّا لم يأكل من يده، يد كريمة معطاءة، سخية.

-أكثر.

-فدائي!

-نعم.

-هكذا أو أكثر.

-ضحك الطاهر.

-قال عمار :فهمت الآن سرّ اللعبة.

-لا تذهب بعيدًا، الأمور مرتّبة وتمّ التحكم فيها.

-نعم الجهاد.

-الكلّ في مكانه، والكل حسب حرفته والطائر يبني عشّه.

- -قضيّة قناعات؟

-لا فرق عنده بين أن ينتعل حداء جديدًا أو قديمًا أنيّ رأيته وأكثر من مرّة بحداء جديد وما إن يطلع النّهار حتى تراه ينتعل شيئا آخر.

-لأنّ عقلك محدود.

-أباعه عمي العربيّ وأكل ثمنه أم.....؟

-أنت أبله!

-هذا الذي يحيّرني!

-انتبه قليلا!

-عمي العربي رجل بسيط ولكنّه يفكر أفضل منك بكثير ولولاه لما وجدت ما تنتعل أفهمت؟

-بجد! إنّه عامل بسيط فعلا ولكنه رجل لا كلّ الرجال، يعوّل أفراد أسرته، يخلق خبزته من الحجر، عمله شاق ومضن، يمارس أعمالا شاقة خارج أوقات

عمله كحفر الآبار بحثا عن الماء في مزارع الكولون، هو حرّ مادام لا يؤذينا وأكثر من هذا أنّه يتعاون معنا ويقدم لنا خدمات لولاها لما انتعلنا أحذية، وكم مرّة قلت لك أنك رجل لا تنتبه للأشياء الصغيرة، رغم أنك رجل فدائي تفترض فيك الفطانة، الفدائيّ النّاجح من يلتفت لهذه الأشياء الصغيرة، الأشياء أجسام غريبة تغزو الجسم تهلكه، تدخل بين المرء و أخيه تفرقّه، تزجّ به إلى أمكنة يجهل مخرجها.إنّها أجسام غريبة الأطوار، وسيلة وغاية بحّد ذاتها تملأ الأمكنة الفارغة، تُعطى للفراغات صورًا مبهمة، شكلها يضفي عليها نكهة، لكنها لا ترحم أحدا خلقت هكذا قاسية صلدة مريحة، قوّة كامنة في عمقها، بعدها تتلاشى محدثة صخبًا رهيبًا.لذا أنتبه قليلا، هذه هي الأشياء الصغيرة في قوتها وسرّ تفاعلها، عضوية متلاحمة، لذا أنتبه قليلا حتى تعيها في وقتها اللائق بها، نديرها حسب رغباتنا، نتحكّم فيها بقوّة إرادتنا.إرادتنا قوّة، قدرة على فعل شيء أو تركه، الأشياء الصغيرة لا تقدّر شعور أحد إنّها صمّاء، خرساء تزيد الأشياء قوة رهيبة، لذا الحيطة والحذر وامش ببطء ولا تتسرع هكذا سمعته يقول، إنّه وطني يحبّ وطنه حدّ النخاع ولا أحد يشّك في وطنيته وأمثاله كثيرون وإلا من ذا الذي كان يمدّنا بأحذية وعلب سردين وأشياء أخرى؟.

-هذا الذي لم يخطر على بالي.

-لأنّك أبله تعتقد أنّ هناك مؤسسة تموّلك؟ما تنتعله هو الحداء الذي رأيته البارحة في قدميه.

-مستحيل، ولاح بنظره يتأمل حداءه.

-أرأيت؟

-يا إلهي إنّه هو.....

-وفضله علينا كثير...

-وأنت تقول ما لا تعلم!

-أنا مُدان له!

- بكري.....

-كيف!

-عميّ العربيّ قلبه واسع وكبير.....

-ربّما!

-نسيّها.

-قلت له ذات مساء أنت مثقل ومتعب يا عمي العربي، متعب بأعمالك، مثقل بهذا الاسم.

-الأوّل وكما يقولون "شقيّ ولا محتاج" أما الثّاني فلا انتماء غيره وأكثر من هذا إذا أردت خدمة فأنا في الخدمة.

-شكرا.

-لا شكر على واجب.

-الله يحفظك.

-هذا حلمنا الذي نناضل من أجله، ثمّ أردف قائلا :حلمي الوحيد أن نتحرّر ويجلس أبناؤنا على مقاعد الدراسة..نحن لم يكتب لنا المكتوب أن دخلنا مدرسة أو قرأنا حرفا، قدرنا هكذا أريد له أن يكون ولسنا أفضل من الذين مرّوا من قبلنا وهم اليوم تراب وكل ما فوق التراب تراب يا صاح ولكن ما يحزّ في نفسي هؤلاء الأطفال الذين لا ذنب لهم عدا وجودهم معنا، حلمي أن أرى أطفالي وهم على مقاعد الدراسة لا حلم لي بعد هذا.

-ما زالت البركة.

-البركة في وجودكم، أما نحن حاجة أخرى فالحياة أخذت منّا حاجتها

ولسنا بمبتئسين، هذا قدرنا ولسنا أفضل من الذين سبقونا والدنيا حظوظ، وحظنا دفن في حلق الطيور، لم ندخل المدرسة يومًا، لم نتعلم حرفًا، عشنا حياتنا كما أرادوها لنا أن تكون، ومهما يكن لسنا أسوأ حظا من الذين مرّوا من هنا هم آباؤنا وأمهاتنا وأجدادنا، حقيقة لا يمكن أن نقفز عنها، ماتوا واليوم هم تراب.

-صدقت.

-قلت له بالحرف الواحد :ألا تخاف من العسكر؟

-العسكر لا يخوفني.

-والموت.

-كلنا نموت اليوم أوغدا قضية وقت فقط؟

-بجد.

-قناعتي، و الثّقة هي رأس مالي.

-ولو رآك؟

-لن تراني إلا عين لا تنام.

- نعم الإحساس.

-هذا ليس إحساسًا بقدر ما أسميه إيمانًا. -عظيم! -العظمة لله عزّ وجلّ.

-نعم الرّأي السّديد..

-الله ينورك، ما أنا إلا واحد من حلقة يصعب فكها، كلنا في الخدمة، غايتنا تقديم خدمة متى أمكننا لنا ذلك، أنا لا فرق بيني وبين البرّاح، البرّاح و له مفاتيح، كلام مشفر، من جهة إلى جهة أخرى يصل خطابه، إني أكاد أجزم أنه أكثر من الفدائي، الفدائي له ما يقاتل به أما هذا البراح إن قبض عليه فمصيره الإعدام لا محالة، أو تعتقد أنّ العسكر في غفلة عن هذا؟

– ما فهمتش. –رسالة مشفرة.

–أكثر من لغز أو طلسم.

–لا تقلق.

–نصر أو استشهاد والله أكبر.

–ضحك عمار بملء فيه وهو ينظّف سلاحه.

–ما الذي يضحكك؟

–لا شيء.–لا فيه شيء.

–بل أشياء ربّما يا حضرة القائد لن يصل علينا فجر الاستقلال.

–هذا لا يهمّ.

–ماذا؟

–أكثر من هذا!.

–وهل هناك ما هو أغلى؟

– كرامة المرء وعزّته.

–كم أنت تبالغ؟

–هذا واقع.

–لا أظن.

––قلت لك أكثر من مرّة، ليس سهلا أن تغيّر شيئًا ثم تعيشه.

–ليس بالضرورة.

–الجهاد شيء مقدس والحياة ممارسة، وليست كما يعيشها بعض النّاس بطريقة عبثيّة لا كفاءة مستهدفة فيها.

–معنى هذا؟!

–ماذا ترى؟

-أكثر من هذا!

-عندها وقعت نظرته على طائر.

-أرأيت.؟

-طائر يطعم فراخه الصّغار.

-هذه هي العدالة.

-ونحن من أجلها هنا.

-الموقف حرج.

-لا تخاف.حينئذٍ رأيا دوريّة عسكرية، تحاصرالدوّارتطوّقه، تسدّ منافذه، أنفاس السّكان تكاد تنقطّع، امرأة على غير عادتها، تبكي بكاء طائر مهيض. تجمع الحطب، تهرّول، تصرخ، قلوب النّاس واجفة، أبصارها خائفة، الجنود يحاصرون الدوّار معلنين في صوت كأنّه البوق:أن قفوا مكانكم، لا تتحركوا، ساد المشتى سكون موحش خلا صوت هذه المرأة الذي يملأ المكان، وكلّ ما في الأمر أنّها تجمع الحطب مشكّلة كومة كبيرة فوق مكان معيّن، جغرافيته محدّدة المعالم، مرّة تبكي و مّرة تركض في كلّ جهة، حركـــات تقشعّر لها الأبدان، لكن العساكر هادئون، كلّ واحد في مكانه، إنهم يراقبون المشتى بحذر، عيونهم الزّرقاء، أسلحتهم اللاّمعة في أشعّة الشّمس، وقفتهم الصمّاء تزيد المشتى هدوءا وحزنًا، أعناق النّاس تشرئب من حين لآخر مستطلعين الخبر، لا شيء يعلو إلا صوت هذه المرأة الباكية على غير عادتها، الجنود يتقدمون ببطء، كلابهم تزداد نباحًا جنونيًّا، نبضات القلوب تزداد خفقانا، المرأة تجري، تنظر في كلّ جهة، هاهي الآن تضرم النار في كومة من قماش، النار تشتعل، ألسنتها ترتفع، الدخان يتصاعد يحجب الرؤية، المشتى أضحت في ضبابيّة، الجنود يتقدّمون، يتحرّكون، يركضون والنّار تشتعل تضفي على المكان نورًا رهيبًا والمرأة تبكي

داعية ربّها في صمت دفين رحماك يا ربّ، نار الدّنيا و ظلمة الدّهليز.لا ذنب له إلا أنّه حمّل وطنه في صدره، رغبة في تحرير بلاده من ربقهم، من خبثهم من ظلمهم وطغيانه، استره يا ربّ، لم يبق هناك بريق أمل، إنهم يتقدمون، يتوّغلون صوب هذا الدوّار، لا أمل.ترى ماذا لو قبضوا عليه؟لو عرفوا سرّ هذه النّار، هذا الدّهليز الذي خبّأ سرّ الأيّام، لا ريب أنّها نهاية المطاف، نهاية رحلة كانت سجلاّ ذهبيّا، وعضّت على شفتها السفلى، وانتابها ذهول وفجأة تراءت لها سيّارة "جيب " قادمة، وقفت على ساق وسوق واحدة وسقطت قطرة باردة في قلبها، أحسّت بالخطر بترصدها والسيّارة تتقدّم بسرعة مذهلة، الجنود يواصلون مهمتهم، لقد فتشوا الأكواخ و خباياها، لا شيء هناك يا سيّدي هكذا أومأ ضابط لفرقته العسكريّة وفجأة وقفوا وقفة استعداد واستطلاع، والسيّارة تتوقف، الجنود ينظرون مسمّرين نظراتهم، عسكري يقفز وراءه رجل ملثّم الوجه ينزل، تلاه ضابطان المرأة تبكي، النّار تتقد، الدّخان يتصاعد، حسابات ضيقة تسقط، احتمالات كثيرة، معطيات تفتح الدوّارعلى انعراجات خطرة، جراحات عميقة، الكلاب تنبح، الأصوات تتداخل، والمرأة تركض ملتقطة كلّ ما تجده أمامها تختلس النظر بطرفة عين، والنّاس سكارى، الغربان تدور، مشكّلة حلقة دائريّة المرأة تلعن الرجل وجدّه، تلعن مجيئه، إنّه هو لا أحد غيره، نفس خبيثة، دنّست الدّنيا وخرّبت ديارا.إنّه هو، لا أحد، ضحاياه كثيرون، انّه من حثالة البشر، همّه التلذذ بآلام الآخرين.اليوم نهايته ويرتاح منه الدّوار برمّته، حتّى الأطفال الّذين زرع فيهم الذّعر سيرتاحون منه، من نظرته الوقحة من جثته، مشيته، خان وطنه وباع نفسه من أجل لا شيء، إنّه هو حركي بن حركي.هكذا قالت وراحت تجرّ رجليها على وهن، واللوحة لم تكتمل هناك لون ينقصها وهنا أوقفها عسكري وهذه المرأة أتعرفها؟. صمت برهة ثمّ هزّ

رأسه نعم يا سيّدي. –من تكون؟ –إنها هي، هي ولكن المرأة لم تلتفت إليه، فمشت متثاقلة، إنّ بصيص أمل يتأجّج في نفسها، والنّار لم تخمد بعد، الضّابط يلوّح مناديًا..فاطمة، فاطمة..خطت خطوة خطوتين مدعيّة أنّها لم تسمعه، اقترب الضّابط منها صارخًا في وجهه، من تكون هذه المرأة؟

زوجته سيّدي، إنّها هيّ.....

ردّت في تحد:كذّاب، كذّاب، ولا شيء ألبتّة، مسكها الضّابط ثمّ جرّها من شعرها واقتادها أمامه إلى حيث المخبأ.تقدّم الجنود محاصرين المكان من كلّ جهاته، لا حركة تدب ولا صوت يعلو فوق فوهة البنادق تقدموا زُرافات ووحدانا ولكن ما إن وطأت أقدامهم عتبة المخبأ حتّى هزّه انفجار عنيف، أعقبته طلقات رشّاش، ولم تعد تسمع إلا كلمات سدّدوا، تقدّموا، الله أكبر، إنّ معركة هائلة نشبت أخذت طعم الليمون يفتح الشّهية، قتال أشتد وقعه، نسوة يزغردن، جنود يتقدمون، يقفزون مقتحمين ساحة المعركة، تعالت الحناجر، تداخلت الأصوات، عمّت الزغاريد، والله أكبر، وتوالت طلقات ماط ٤٩ أعقبتها زغاريد، شحنت جنود الثورة مما أضفى على المكان جوا مشحونا بانفعالات الغضب، صمد الجنود هنيهة في أماكن تواجدهم وبدأت المعركة يشتد وقوعها، زغاريد غطّت الأمكنة أضفت عليها نكهة، فتحت شهيّة الموت، وقتها كان القائد يترصد تحركات جنوده وطلقات رصاصاتهم.قال فدائي وهو يشير بيده :إنّ الوقت للنار والرصاص لا لشيء آخر، واللّوحة لم تكتمل بعد هناك لون ينقصها، لون لا يشبه الألوان الأخرى، لون يفتح الشّهية، يؤجج الأحاسيس، والزغاريد تعلو والثّوار يقفزون من ربوة إلى أخرى، هذا المشهد التراجيدي أربك عسكر فرنسا وأدخل الخوف في قلوبهم والزغاريد تملأ الدوّار، والعسكر لم يعد يفهم كنهها أو فكّ لغزها، إنّ شيئا ما يحدث، حاول

تفسيره ولكن عبثًا يحاول، لقد عجز عن الكلام وقف مسمرا نظره باحثًا عن مصدر الزغاريد لم يسمع إلا صوت فدائي وهو يحذر كل امرأة ستفتح فمها، فاغتنم العدوّ فرصة خروجهم فألحق بهم هزيمة حينها بدأت الزغاريد تتقطع إلا من زغرودة امرأة لم تكفّ عن زغاريدها، فلم يتمالك القائد نفسه فصوّب رشاشه صوبها فأخرسها، والله أكبر.

صاح صاحبه لمَ فعلتها؟.

-لم يكن أمامي حلا آخر.

-كان في مقدورك أن تفعل شيئا أقل من هذا!

- لا حل يا عمار أمام هذه الظروف ومعطياتها لا بد أن تضحي بجهة قبل أن يُقضى علينا، لقد نهبتها ولكنها لم تلجم لسانها، الضرورة تبيح المحظورة يا عمار خويا، أولم يستشهد قبلها أطفال ورجال ونساء لا داعي للقلق.

-لكن المرأة قتلت.

- القتل في فلسفة الثورة حالة مجازية.

-تقتل المرأة ثمّ تدعي هذا؟

- القتل في ميدان الشرف يتحول تلقائيًا إلى حياة خالدة مخلدة، إلى طاقة جديدة متجدّدة، كلنا نموت، قضيّة وقت ليس إلا.

- ولكن...

- لا شيء في نظر الثورة، الأهم إنقاذ ما يمكنه إنقاذه من جنودنا، هي من جنت على نفسها، الحماقات أحيانا تميت صاحبها.

-ولكنها ليست امرأة حمقاء.

-إن لم أقتلها قتلتنا.

في تصوّرك.

-هذا ليس تصوّرا، أو لم تر الجنود وقد أججت فيهم أحساسا جعلتهم لا يحسبون حسابات للموت.

-الذي يخاف من الموت لن يرى النّور.

-هذا ما يجب.

-ولكنها ساندت الثورة ووقفت جنبنا مرّات.

-الله يرحم الشهداء، شهداء الحرية والوطن كثيرون، الحريّة يا صاح غاليّة لا تقدر بثمن، ثمنها غال ولن تكون إلا بالدماء. -أنا أعرف هذا جيدا ولكن. -هذا ما يجب، الرّصاصة لا إحساس لها ولا عاطفة ومن يخطئ يدفع الثمن غاليًا، صحيح أنّنا خسرنا امرأة فحلة ولكن لم نخسر المعركة، نحن شعب لا نستسلم، ننتصر أو نستشهد.

٨

-ردّالتّهامي معك الحق ولكن..

-ماذا؟!

-ميلود وعمّار وعبود!

-ما بهم؟

-لقد تمت محاصرتهم.

-ربّ يكون معهم؟

-نطق آخر وماذا جرى؟ جرى ما جرى لقد حاصرتهم فرقة عسكريّة مدججة بأسلحة وقنابل يدويّة، طوّقتهم من كلّ الجهات ولم يتركوا لهم منفذا، لقد تمّ التحكّم في منافذ الدوّار ومخارجه، هنا عساكر، هناك سيارات جيب، في الجهة الغربية طائرة هيلكوبتر تحوم راصدة كلّ حركة تصدر من قبل فدائي، ، صبيحة لم تمرّ كعادتها، لقد نُمي إلى مسمعهم أنّ فدائيين بالجهة المقابلة للقرية يريدون الدخول إليها قصد تنفيذ عملية فدائية، لفك الحصار المضروب منذ البارحة، لقد وصلتهم أخبار، فاغتنم العسكر الفرصة فخرج ليلا ناصبًا كمينًا محكمًا لهم، ولقد تزامن هذا وخروج الناس في مظاهرة لم تشهدها القرية من قبل، وما إن استفاق سكان الدوّار حتى وجدوا أنفسهم محاصرين من كلّ

الجهات، هناك بالجهة المقابلة امرأة تبكي بكاء طائر مهيض في ليلة عاصفة تنادي من حين لآخر عن راع معز تحذره من الذئب والذئب لا يعرف هذه المنطقة والضّابط الفرنسي يستمع إلى صراخها لقد فهم سرّ خطابها وأنّ لا معزاة هناك ولا هبهبة تيوس، إذن في الحكاية قصة أخرى، لن يفلتوا من قبضتنا اليوم سيرون ما لم يروه في حياتهم هكذا قال الضابط مخاطبًا جنوده، إنّهم إرهابيون، قطاع طرق، اليوم نهايتهم ونهاية كلّ من يساندهم ويمدّهم بسنابل الحياة والأخبار، حاصروا المنطقة لا تتردّدوا، خذوا حذركم إنّهم هناك، لقد فهمت سرّ خطابها، ماذا يجري هناك؟ -أين؟

- أسفل الجبل.

-ماذا هناك؟ أمر خطير! لقد رأوا النّاس فارين، أطفال يركضون، شيوخ يهرولون لقد عادوا من القرية باكرا وكأنّ شيئا سيقع لا محالة، تحركات غير عادية لقد تسربت أخبار أنّ نفرًا من المجاهدين سيدخلون القرية وسيوجهون ضربة قاتلة هكذا تداول النّاس الخبر وجرى جريان الدم في العروق، هناك من خاف وهناك من هتف مهللا. هم الآن في طريقهم إلى القرية، إنّهم يتهامسون، يقولون كلاما مبهما، يتمتمون، عساكر يركضون صوب الثكنة، صفارات إنذار تملأ القرية، شوارع أفرغت، الحركة توقفت، آليات الموت تتحرك، تتقدّم، فرق عسكريّة مجهّزة بترسانة حربيّة، عساكر مدججون بأسلحة أوتوماتكيّة، قنابل عنقودية، طيور نوارس تدور مشكلة حلقة دائرية تصدر أصوات مزعجة تقشعر لها الأبدان والمعركة على وشك الوقوع والنّاس خائفون من القتل والتقتيل مرددين :العسكر، العسكر، لقد بدأوا يسمعون دوي الشاحنات قادمة تجاه الدوّار والدوّار لم يعرف معنى الحياة بعد، لا ماء ولا عيشة كريمة، كيلو سميد لكلّ فرد في أسبوع، انّه شيء لا يطاق، والعسكر يتقدّم، آليات

الموت تزحف صوب الدوّار هذا ما قاله لي التهامي مؤكدًا أنّ عبود ركب رأسه وعزم على توجيه ضربة للعسكر، لقد احتمى بصخرة صلّدة، وهاهو الآن يتسلق هذه الدّروب الوعرة، يقفز من ربوة لأخرى وفي عينيه حلم، وعلى راحتيه نجوم تنام، هذا الحلم علّق عليه أملا كبيرًا، أمل في توجيه ضربة قاضية للعدوّ، لقد عزم عبود على التحدي حتى صاروا يلقبونه Aboud le défet

صاح قائد الفرقة مخاطبًا جنديّا:اقتله لا تدع له فرصة للمقاومة، أو للهرب، إنّه فلاق بن فلاق على فلسفة جدّه، حاصروه، لا أمل له في النجاة، حذار أن يفلت من بين أيدينا، سنريه من نكون

– ردّ عبود:لن تكونوا إلا همجيين وعابري حدود ليس إلا.

–كلام أجدادك.

– وأنا فخور بانتمائي هذا.

–ستموت آجلا أو عاجلا.

–كلّنا نموت.

–لا تكن أحمق سلّم نفسك.

نحن ننتصر، " إننا سننتصر لأنّنا نمثّل قوة المستقبل الزّاهر، و أنتم ستهزمون لأنّكم تريدون وقف عجلة التاريخ الذي سيسحقكم... لأنكم تريدون التشبث بماض استعماري متعفّن حكم عليه العصر بالزّوال، و لئن متّ فإنّ هناك آلاف الجزائريين سيأتون بعدي لمواصلة الكفاح من أجل عقيدتنا ووطننا "نستشهد ولا نموت.

–أنت الآن محاصر ولا أمل لك.

–الأمل يبقى قائمًا مادام هناك نفس وسنجعل البارود يتكلم نيابة عنا.

– أنت ميت الآن عن أيّ بارود تتكلم؟ –كلما سقط شهيد حمل الرّاية

فدائي آخر. رفع القائد صوته آمرا عساكره بإطلاق الرصاص ولكن عبود قاوم طلقاتهم غير أن ذخيرته نفذت، حاول الانسحاب عبر مفاصل صخور عالقة ولكن العدوّ طوّق الجهة ولم يترك له منفذا. لم يتوان عبود في شتمهم مرددا قتلة مرتزقة ولكن العدو تمكّن منه، هذا ما قاله لي التهامي صبيحة هذا اليوم، لقد جاءني وفي قلبه غصّة، متحسّرًا عما حدث له، لقد أحسّ بصدمة ولم يهضم الخبر، لقد نزل عليه الخبر كالصاعقة، تحدث عن شجاعته، عن طبيعة المعركة، خمسة عشر مجاهدا ضد زحف من العسكر، لقد أصرّ عبود أن يوجه لهم ضربةعند منعرج خطر، لقد أقسم أنّ هذا اليوم سيكون أحمر والسماء لابد أن تمطر قنابل، حبّ من حبّ وكره من كره وبدأ يرسم خطته وهو ينظر في تقاسيم رفاقه، الهجوم يحتمل أن يكون من هنا لا من هناك، وراح يخطط ويخطط، صاح أحد الفدائيين هذا انتحار، ولكن عبود ركب رأسه، ولم يول للأمر أهميّة.

-صاح البشير الهدوء الهدوء.

-نطق آخر هذا تهوّر! -

سمّه كيفما شئت!.

--الهدوء الهدوء!

-لا هدوء ولا شيء آخر، اليوم يعرف قدر نفسه.

-ولكن!

-لا يهم هذا، الأهم أن نوقفهم عند حدودهم.

-ولكننا سنخسر المعركة.

-إذا خسرنا المعركة فالحرب مستمرة، "حاولوا دائما حتى ولو كانت نسبة النجاح تبدو ضئيلة، فإذا فشلتم قيل إنّهم حاولوا وفي ذلك رجولة وفخر"- سيقتلوننا. نحن نستشهد ولا نموت، لابد من تنفيذ هذه العملية حتى يتأكد أنّ

المنطقة عامرة وبها رجال وزنهم ذهب.هذه الأرض عليها رجال عظماء، عظماء رغم بساطتهم وقلة إمكانياتهم، لابد أن يعرف معنى وجودنا، نحن ولدنا هنا وهنا نستشهد أو نتحرر ولا يمكن والى الأبد أن ندفن رؤوسنا في التراب، رؤوسنا ستبقى مرفوعة قد هذا الوطن وهذا خط أحمر من تجاوزه لقي حتفه.

-نطق آخر: لكن هذه مجازفة. هذا قراري وهذه إرادتي ثمّ بدأ في تفويج الفدائيين إلى فوجين، فوج عند المنحدر والآخر عند قمته قائلا :إيّاكم إيّاكم والتخاذل، لا أحد فيكم يتحرك أو يطلق رصاصة حتى تسمعوا كلمة السرّ. ردّ فدائي آخر ولكن ما مفتاحها؟. -لا تقلق!كلّ واحد في مكانه. تموّقع كلّ واحد في مكانه كما أُمر، ولم يمرّ وقت طويل حتى تناءى إلى مسمعهم دوي شاحنات يقترب وما إن توغلت الأولى والثانية والثالثة المنطقة حتى صاح عبود- الله أكبر، فأعقبته طلقات رصاص في كلّ اتجاه، قفز العسكر منبطحا خذ وبدأت المعركة، كانت معركة هائلة ورائعة، ولكن نهايتها لم تكن محمودة لقد استشهد فيها من استشهد وجرح فيها من جرح، ولم يعد عبود يسمع صوت إخوانه، صيحاتهم المدوية والمخيفة في حد ذاتها بدأت تتقطع وتختفي بين مفاصل الصخور والوهاد، لقد تأكد عبود الآن أنّ الكثير من إخوانه استشهدوا جراء هذه الإمدادات التي زود بها العدو بحرا وجوا، ثمّ لاح بنظره فرأى في الجهة الشرقيّة طائرة هليكوبتر -حوّامة- تحلّق على غير هدى، ان أزيزها يقترب لقد سمع عبود صوتها، فأخذ يصيح:الانسحاب..الانسحاب يا الخاوة ولكن ضاع صوته بين الفجاج ولم يعد يسمع إلا صدى صوته يتكسّر ضائعا عبر الكهوف والمغاوير، لقد أيقن جازما أنّ شيئًا ما قد وقع وها هو قد وقع، ولكنّه أصرّ في تحد وثبات على مواصلة المواجهة، طلقات رصاص تأتيه وانية متقطعة coup par coupقال في نفسه أنّ هذا الإيقاع إيقاع تتبع وليس بمستبعد أنّهم

قضوا عليهم جميعا، صاح بصوت عال الله اكبر وفتح m٤٩، أمطرهم رصاصًا ولم يستسلم وراح يردّد نحن ننتصر أو نستشهد، ولا نستسلم وبقيّ يقاوم...

-قال عسكري فرنسي:أقتله.

-صاح ضابط آخر :لا

-لماذا؟

-موته لن يضيف لمعركتنا شيئا.

-وماذا نفعل به؟ -

نرعب به غيره.

--كيف ذلك!؟.

-قضية وقت.

-ولكنه سيفلت من أيدينا.

-لا منفذ له، لقد انتهى.

-لا أعتقد.

-سترى!

-وجيء بمكبر صوت.

-قال جندي آخر.

-لا يستحق هذا، دعني أقتله.

-لا، القتل هنا لا يجدي نفعا وماذا تفعل بجثة هامدة لا حراك فيها.

-ننكل به.

-لن تضيف للمعادلة شيئا.

-لم أعد أفهم شيئا.

-ستفهم!

-أخرج الضابط مكبر صوت ثم صاح قائلا:لقد انتهى أمرك، سلّم نفسك قبل أن تُقتل.

-"أفضل أن أموت بين إخواني على أن أستسلم للسفاحين "

-كلامك خطر -أنتم الخطر، لن يأتي الخطر إلا منكم -سلّم نفسك قبل أن تقتل -ومن قال لكم بأني حيّ.

-صيحاتك.

- سلّم نفسك وأنقذ حياتك وتأكد انّك تعيش في أمن وآمان.

-فاقو!

-ماذا قلت لم افهم شيئًا.

-لاشي.

-أمر الضابط فرقة بتطويق الجهة.

-أمرك.

-وفي لحظة لم ينتبه فيها عبود لسرّ الحيلة إذ بعساكر يطوقونه مقتربين منه خطوة خطوة و تمّ القبض عليه.

-قال الضابط مخاطبًا جنديًّا :هل هناك حبل. -وماذا أنت فاعل به؟.

-سترى!

-أرني الحيلة!

-انتظر قليلا.

-هات الحبل، ثمّ اقترب من عبود ثمّ لفه حول عنقه ثمّ أمر جندي بجرّه، حيّ الجندي ضابطه مرددا :أمرك. قال الضابط مخاطبًا فرقته هذا المشهد أكثر تأثيرا من قتله وسينعكس على نفسيّة النّاس برمتهم، إنّها اهانة مابعدها إهانة!

-ما تره أنت إهانة يروه شهامة -ردّ ملازم: لن يكّفوا عن مقاومتهم سيّدي

الضابط.

-والحلّ! -لا حلّ أرمه داخل -bureaudeuxième

-قال ضابط بعد أن أدار رأسه قبالة النافذة، نازعا نظارته:

-جئت أم جيء بك.

-الاثنان معا.

-اسمك!

-عبود بن الطاهر.

-اسم أمك. -

فاطمة بنت عمار.

-تاريخ ميلادك يوم أمطرت طائراتكم أرضي قنابل.

- هويتك.

-عسكري.

- مهمتك.

- قُتل مغتصبي.

-ألا تخاف!؟

-ممن؟

-المقصلة! -إنني مبتهج بأن أكون أوّل من يصعد إلى المقصلة، بنا أو بدوننا ستحيا الجزائر... ليس من عادتنا أن نطلب، بل من عادتنا أن ننتزع، و سننتزع منكم حريتنا عاجلا أم آجلا".

-ألا تخاف من الموت.

-من قال لكم بأني حيّ؟

-ما نراه.

-ولكن هذا جسدي!

-والحياة!

- الحياة شيء آخر!

-لكن!

-ماذا؟

-حياة أطفالي وأطفال الجزائر.

-وأنت ما حشرك في هذا!

-إحساسي!

-أنت لست هيئة أممية، أنت فلاق مأمور وأكثر من هذا!

-وسأبقى فلاق على فلسفة جدّي.

-انتهى أجلك.

-هذا لا يهمّ

-وماذا يهمك؟

-أن أرى أطفال الجزائر على مقاعد الدراسة.

-هي موجودة الآن!

-لأبناء القيّاد والقتلة.

-اخرس!.

تنظيمكم المسلح!.

- كتنظيمكم تمامًا.

- سلاحكم.

- سلاحنا، سلاحكم.

- مقراتكم.

- مغارات.

-هدفكم؟

-تحرير الوطن من قبضتكم.

-لن تفلتوا.

-ممن؟

-من كيدنا، كلّم قطاع الطرق، إرهابيون.

-إذا كان الذي يدافع عن وطنه تعتبرونه إرهابيا فإنّ هذا يسعدني كثيرًا.

-ماذا تقول!؟

- لاشيء!...

- ها تعرف مصيرك.

- القتل!.

- ألديك وصيّة!

-تنفيذ قوانين الأسرى، و"إذا ما استشهدنا هناك من يدافع عن أرواحنا.. نحن خُلقنا من أجل أن نموت.

-صرت منظرا!

-هذا إذا انطلقنا أنّ فرنسا جاءت لتنير طريقنا!

-يكفي!.

-الأسير لا يقتل.

-ليس بالضرورة.

-ماذا؟.

-يعذب!

-وصيتك!

– لا وصيّة لأسير.

–أوليس لديك كلمة!.

–كلمتي لن يكفيها حبر ولا ورق.

–معنى هذا!

–إنكم مخطئون يا سادة هذه البلاد ليست بلادكم، وهذه الأرض أرض أجدادنا الأولين.

–ومن تكون أنت؟

أنا ابن الأرض.

جدي فلاح ساذج وأبي قُتل

كان يغني للأرض

للحريّة.

ce que tu chantes Aboudqu'est

–!c' est mal honnête

– آخر كلمة قبل أن يوضع رأسك على آلة المقصلة.

– الله أكبر..المجد والخلود لشهدائنا الأبرار.

– طوى الضابط ملفه ثمّ أومأ لجندي أن يرميه داخل زنزانة.

–تمتم عبود في عتمة ليل بهيم لحارس زنزانة كان يجوب الرّواق ذهابًا وإيابا، كأنّه مسجون هو الآخر، حياته روتين قاتل، ولا شيء يوحي بأنّ هناك حياة، صاح عبود من خلف قضبان صلدة ما رأيّك أيها الحارس؟

– فيمَ؟ – لو أنّك

–ماذا؟.

–أخرس.

– أنت مسجون مثلي، أليس كذلك؟ –يبدو لك هذا. –لا أعتقد. –تعتقد أو لا تعتقد أنت مثلي تمامًا. –ماذا تريد؟ –ماذا لو تعاونت معنا..

–ومن أنتم؟ –شعب يفتش عن وجوده –أنتم لا وجود لكم..

–ولكن هذا الأرض ليست لكم، وأنت تعرف جيدا.

–لا حق لديّكم الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، ونحن جئنا لإقناعكم.

–الجزائر وطننا.

–كف عن الحماقات، الجزائر قطعة من فرنسا.

– دعنا من هذا وذاك، ماذا لو تعاونت معنا؟

–ماذا قلت؟!

–لاشيء ولكن ستعيش عيشة هنية.

–معنى هذا!...

–ما فهمت!.

– هذا أمر خطير، لا تحاول أن تتفوّه به مرّة أخرى وإيّاك أن تفكر فيه.

– الموت قضاء وقدر، أنت جندي سواء معهم أو معنا وأكثر من هذا لن يلحق بك مكروه.

– أعرف هذا ولكني مأمور، جندي ينفذ ما يُملى عليه.

–أنا جندي وأنت جندي وكلانا في السجن، لماذا لا نغتنم الفرصة ونصير حرّين طلقين ألست ذكيا؟أو أليست الحرية إحساس طبيعي لدى الإنسان، وهي أصل وجوده.

–أي نعم!

–إذن للإنسان حق في الحريّة كحقه في الحياة. –أنا جندي مأمور.

–قل مقموع! الحرية تتنافى مع القمع والاستغلال والاستعباد.

– أكثر.

– نفرّ فجرا، لن يعرف وقع خطواتنا أحد.

–يبدو أن الخرف خرّب ذاكرتك!.

–لا أنا على وعي تام ولكن ما معنى هذه الحياة، وما قيمة هذا الوجود؟

–ما فهمتش. –أنت يا حضرة الحارس تعيش الوجع فقط –اخرج الحارس علبة السجائر مخاطبا عبود.–سيجارة؟

– أنا لا أدخن.

–لنطفئ وحشة المكان.

– واحدة ليس إلا.

– سحب عبود نفسا طويلا وراح يتتبع خيوط دخانها سائلا الحارس لماذا لا نكون حرّين و نواصل طريقنا.

– تجاه ماذا؟

– الجبل!.

–حذار!.

– لا تفوت الفرصة، واترك كلّ شيء علي، سأكون عند حسن ظنّك.

– فكّر الحارس مليًّا، وعاد إلى الوراء، تذكر طفولته، أمّه، أباه، بكى بصمت دفين

–ماذا يبكيك؟!

– أشياء نبتت في ذاكرتيّ و لا حشر لك فيها وراح يحدث نفسه.تخمين أوّل :ماذا لو فتحت له باب الزنزانة؟هل يحقّ لي ذلك؟ وكيف يمكن أن أتصوّر نهايتي عندالصبيحة، النهاية معروفة و محتومة، وماذا لو تغافلت عنه وتركت له فرصة الفرار مفتوحة؟ ولكن كيف يمكنني تبرير موقفي تجاه الضابط العسكري

الذي أُفرغ من محتواه الإنساني؟ هل أجرؤ على اتخاذ موقف كهذا؟وهل تعتبر في سياقها التاريخي و الرأي العام الدولي خيانة؟ والعالم يعرف حقيقة ذلك، ولكن أنا جندي مأمور ومأجور، تركت أهلي، أمي، أبي، إخوتي، واحتمال وارد أنّي لن أراهم وإلى الأبد.تخمين ثان :ماذا لو غامرت و فررت من صفوف الجيش؟ولكن ماذا سيترتب عن هذه السلوك الاندفاعيّ؟ وانتابته هواجس لم يعرف كنهها أو فكّ لغزها الأزرق، ومال برأسه الصغير مسندا إيّاه للحائط، غفا لحظات تراءت له مشنقة وحبل متين يتدلى، رأى الرّواق ولم يرعبود فاستفاق مركوبًا صاح فلم يعد يسمع إلا صدى صوته يجلجل الفراغات.